إلجام العوام

عن

علم الكلام

تاليف

حجة الاسلام أبى حامد محمد بن محمد الغزالى رحمه الله

تجد فيه الاعتقاد الحق فى السلف الصالح ، التقديس ومعناه والايمان ، والتصديق والاعتراف بالعجز ، والآيات الواردة فى توحيد الله جل وعلا ، وصدق الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتسليم لأهل المعرفة ، والبراهين النافعة الجازمة بالادلة الكلامية فى صفاته تعالى وكتبه ورسله واليوم الاخر . . الخ

طبعت وروجعت هذه النسخة على جملة نسخ قديمة وعلى النسخ المطبوعة سنة ١٣٠٩ و ١٣٢٨ فاصبحت هذه النسخة أصح من كل النسخ الموجودة

عنى بنشره

محمد على عطية الكتبى

سنة ١٣٥٠ هـ — ١٩٣٢ م

يطلب من كل المكاتب الشهيرة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمـــد لله الذى تجلى لكافة عباده بصفاته واسمائه ، وتاهت عقول الطالبين في بيداء كبريائه ، وقص أجنحة الافكار دون حمى عزته وتعالى بجلاله عن أن تدرك الافهام كنه حقيقته واستوفى قلوب أوليائه وخاصته واستغرق أرواحهم حتى احترقوا بنار محبته وبهتوا فى أشراق أنوار عظمته وخرست ألسنتهم عن الثناء على جمال حضرته الا بما أسمعهم من أسمائه وصفاته وأنبأهم على لسان رسوله محمد ﷺ خير خليقته وعلى أصحابه وعترته

(أما بعـــد) فقد سألتني أرشدك الله عن الاخبار الموهمة للتشبيه عند الرعاع والجهال من الحشوية الضلال حيث اعتقدوا فى الله وصفاته مايتعالى ويتقدس عنه من الصورة واليد والقدم والنزول والانتقال والجلوس على العرش والاستقرار وما يجرى مجراه مما أخذوه من ظواهر الاخبار وصورها وانهم زعموا أن معتقدهم فيه معتقد السلف وأردت أن أشرح لك اعتقاد السلف وأن أبين مايجب على عموم الخلق أن يعتقدوه فى هذه الاخبار وأكشف فيه الغطاء عن الحق وأميز مايجب البحث عنه عما يجب الامساك والكف من الخوض فيه فأجبتك إلى طلبتك متقربا الى الله سبحانه وتعالى باظهار الحق الصريح من غير مداهنة ومراقبة جانب ومحافظة على تعصب لمذهب ذى مذهب فالحق أولى بالمراقبة والصدق والانصاف أولى بالمحافظة عليه وأسأل الله التسديد والتوفيق وهو باجابة داعيه حقيق وها أنا أرتب الكتاب على ثلاثة أبواب : **باب** فى بيان حقيقة مذهب السلف فى هذه الاخبار **وباب** فى البرهان على أن الحق فيه مذهب السلف وأن من خالفهم فهو مبتدع **وباب** فى فصول متفرقة نافعة فى هذا الفن

(الباب الاول) فى شرح اعتقاد السلف فى هذه الاخبار اعلم أن الحق الصريح

الذى لامراء فيه عند أهل البصائر هومذهب السلف أعنى مذهب الصحابة والتابعين وها أنا أورد بيانه وبيان برهانه

(فأقول) حقيقة مذهب السلف وهو الحق عندنا أن كل من بلغه حديث من هذه الاحاديث من عوام الخلق يجب عليه فيه سبعة أمور التقديس * ثم التصديق ثم * الاعتراف بالعجز * ثم السكوت * ثم الامساك ثم الكف * ثم التسليم لاهل المعرفة .

(أما التقديس) فأعنى به تنزيه الرب تعالى عن الجسمية وتوابعها

(وأما التصديق) فهو الايمان بما قاله ﷺ وأن ماذكره حق وهو فيما قاله صادق وانه حق على الوجه الذي قاله وأراده (وأما الاعتراف بالعجز) فهو ان يقر بأن معرفة مراده ليست على قدر طاقته وان ذلك ليس من شأنه وحرفته

(وأما السكوت) فان لا يسأل عن معناه ولا يخوض فيه ويعلم أن سؤاله عنه بدعة وأنه فى خوضه فيه مخاطر بدينه وأنه يوشك أن يكفر لو خاض فيه من حيث لا يشعر

(وأما الامساك) فان لا يتصرف فى تلك الالفاظ بالتصريف والتبديل بلغة أخرى والزيادة فيه والنقصان منه والجمع والتفريق بل لا ينطق الا بذلك اللفظ وعلى ذلك الوجه من الايراد والاعراب والتصريف والصيغة

(وأما الكف) فان يكف باطنه عن البحث عنه والتفكر فيه

(وأما التسليم لاهله) فان لا يعتقد أن ذلك أن خفى عليه لعجزه فقد خفى على رسول الله ﷺ أو على الانبياء أو على الصديقين والاولياء فهذه سبع وظائف اعتقد كافة السلف وجوبها على كل العوام لا ينبغى أن يظن بالسلف الخلاف في شيء منها فلنشرحها وظيفة وظيفة إن شاء الله تعالى :

(الوظيفة الاولى ـ التقديس) ومعناه أنه اذا سمع اليد والاصبع وقوله ﷺ ان الله خمر طينة آدم بيده * وان قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن * فينبغي أن يعلم أن اليد تطلق لمعنيين أحدهما هو الوضع الاصلى وهو عضو مركب من لحم وعظم وعصب واللحم والعظم والعصب جسم مخصوص وصفات مخصوصة أعنى بالجسم عبارة عن مقدار له طول وعرض وعمق يمنع غيره من أن يوجد بحيث

هو الا بأن يتنحى عن ذلك المكان - وقد يستعار هذا اللفظ - أعني اليد لمعنى آخر ليس ذلك المعنى بجسم أصلا كما يقال البلدة فى يد الامير فان ذلك مفهوم وان كان الأمير مقطوع اليد مثلا فعلى العامى وغير العامى أن يتحقق قطعا ويقينا أن الرسول عليه عليه السلام لم يرد بذلك جسما هو عضو مركب من لحم ودم وعظم وان ذلك فى حق الله تعالى محال وهو عنه مقدس فان خطر بباله أن الله جسم مركب من أعضاء فهو عابد صنم فان كل جسم فهو مخلوق وعبادة المخلوق كفر وعبادة الصنم كانت كفرا لانه مخلوق وكان مخلوقا لانه جسم فمن عبد جسما فهو كافر باجماع الائمة السلف منهم والخلف سواء كان ذلك الجسم كثيفا كالجبال الصم الصلاب أو لطيفا كالهواء والماء وسواء كان مظلما كالارض أو مشرقا كالشمس والقمر والكواكب أو مشفا لا لون له كالهواء أو عظيما كالعرش والكرسى والسماء أو صغيرا كالذرة والهباء أو جمادا كالحجارة أو حيوانا كالانسان فالجسم صنم فبأن يقدر حسنه وجماله أو عظمه أو صغره أو صلابته وبقاؤه لا يخرج عن كونه صنما ومن نفى الجسمية عنه وعن يده وأصبعه فقد نفى العضوية واللحم والعصب وقدس الرب جل جلاله عما يوجب الحدوث وليعتقد بعده أنه عبارة عن معنى من المعانى ليس بجسم ولا عرض فى جسم يليق ذلك المعنى بالله تعالى فان كان لا يدرى ذلك المعنى ولا يفهم كنه حقيقته فليس عليه فى ذلك تكليف أصلا فمعرفة تأويله ومعناه ليس بواجب عليه بل واجب عليه أن لا يخوض فيه كما سيأتى * مثال آخر اذا سمع الصورة فى قوله عليه السلام «ان الله خلق آدم على صورته وإنى رأيت ربى فى أحسن صورة»

فينبغى أن يعلم أن الصورة اسم مشترك قد يطلق ويراد به الهيئة الحاصلة فى أجسام مؤلفة مولدة مرتبة ترتيبا مخصوصا مثل الأنف والعين والفم والخد التى هى أجسام وهى لحوم وعظام وقد يطلق ويراد به ما ليس بجسم ولا هيئة فى جسم ولا هو ترتيب فى أجسام كقولك عرف صورته وما يجرى مجراه فليتحقق كل مؤمن أن الصورة فى حق الله لم تطلق لارادة المعنى الأول الذى هو جسم لحمى وعظمى مركب من أنف وفم وخد - فان جميع ذلك أجسام وهيآت فى أجسام وخالق الأجسام والهيآت كلها منزه عن مشابهتها وصفاتها واذا علم هذا يقينا فهو مؤمن فان خطر له

أنه ان لم يرد هذا المعنى فما الذى أراده فينبغي أن يعلم أن ذلك لم يؤمر به بل أمر بأن لا يخوض فيه فانه ليس على قدر طاقته لكن ينبغي أن يعتقد أنه أريد به معنى يليق بجلال الله وعظمته مما ليس بجسم ولا عرض في جسم * مثال آخر اذا قرع سمعه النزول فى قوله ﷺ (ينزل الله تعالى فى كل ليلة الى السماء الدنيا) فالواجب عليه أن يعلم أن النزول اسم مشترك قد يطلق اطلاقا يفتقر فيه الى ثلاثة أجسام جسم عال هو مكان لساكنه وجسم سافل كذلك وجسم منتقل من السافل الى العالى ومن العالى الى السافل فان كان من أسفل الى علو سمى صعودا وعروجا ورقيا وان كان من علو إلى أسفل سمى نزولا وهبوطا وقد يطلق على معنى آخر ولا يفتقر فيه الى تقدير انتقال وحركة فى جسم كما قال الله تعالى (وأنزل لكم من الانعام ثمانية أزواج) ومارؤى البعير والبقر نازلا من السماء بالانتقال بل هى مخلوقة فى الأرحام ولا نزالها معنى لا محالة كما قال الشافعي رضى الله عنه دخلت مصر فلم يفهموا كلامى فنزلت ثم نزلت ثم نزلت فلم يرد به انتقال جسد الى أسفل فتحقق المؤمن قطعا أن النزول في حق الله تعالى ليس بالمعنى الأول وهو انتقال شخص وجسد من علو الى أسفل فان الشخص والجسد أجسام والرب جل جلاله ليس بجسم فان خطر له أنه ان لم يرد هذا فما الذي أراد فيقال له أنت اذا عجزت عن فهم نزول البعير من السماء فأنت عن فهم نزول الله تعالى أعجز فليس هذا بعشك فادرجي واشتغل بعبادتك أو حرفتك واسكت واعلم أنه أريد به معنى من المعانى التى يجوز أن يراد بالنزول فى لغة العرب ويليق ذلك المعنى بجلال الله تعالى وعظمته وإن كنت لاتعلم حقيقته وكيفيته مثال آخر اذا سمع لفظ الفوق في قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) وفى قوله تعالى (يخافون ربهم من فوقهم) فليعلم أن الفوق اسم مشترك يطلق لمعنيين أحدهما نسبة جسم الى جسم بأن يكون أحدهما أعلى والآخر أسفل يعنى أن الأعلى من جانب رأس الأسفل وقد يطلق لفوقية الرتبة وبهذا المعنى يقال الخليفة فوق السلطان والسلطان فوق الوزير وكما يقال العلم فوق العمل والاول يستدعى جسما ينسب الى جسم

(والثانى) لايستدعيه فليعتقد المؤمن قطعا ان الاول غير مراد وانه على الله

تعالى محال فانه من لوازم الاجسام أو لوازم أعراض الاجسام واذا عرف نفى هذا المحال فلا عليه ان لم يعرف انه لماذا أطلق وماذا أريد فقس على ماذكرناه مالم نذكره

(الوظيفة الثانية — الايمان والتصديق) وهو أنه يعلم قطعاأن هذه الالفاظ أريد بها معنى يليق بجلال الله وعظمته وأن رسول الله ﷺ صادق فى وصف الله تعالى به فليؤمن بذلك وليوقن بان ماقاله صدق وما أخبر عنه حق لاريب فيه وليقل آمنا وصدقنا وان ماوصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله فهو كما وصفه وحق بالمعنى الذى أراده وعلى الوجه الذى قاله وان كنت لاتقف على حقيقته فان قلت التصديق انما يكون بعد التصور والايمان انما يكون بعد التفهم فهذه الالفاظ اذا لم يفهم العبد معانيها كيف يعتقد صدق قائلها فيها فجوابك ان التصديق بالامور الجملية ليس بمحال وكل عاقل يعلم أنه أريد بهذه الالفاظ معان وان كل اسم فله مسمى اذا نطق به من أراد مخاطبة قوم قصد ذلك المسمى فيمكنه أن يعتقد كونه صادقا مخبراً عنه على ماهو عليه فهذا معقول على سبيل الاجمال بل يمكن أن يفهم من هذه الالفاظ أمور جملية غير مفصلة ويمكن التصديق كما اذا قال فى البيت حيوان أمكن ان صدق دون أن يعرف أنه انسان أو فرس أو غيره بل لو قال فيه شىء أمكن تصديقه وان لم يعرف ماذلك الشىء فكذلك من سمع الاستواء على العرش فهم على الجملة انه أريد بذلك نسبة خاصة الى العرش فيمكنه التصديق قبل أن يعرف ان تلك النسبة هى نسبة الاستقرار عليه أو الاقبال على خلقه أو الاستيلاء عليه بالقهر أو معنى آخر من معانى النسبة أمكن التصديق به وان قلت فأى فائدة فى مخاطبة الخلق بما لايفهمون فجوابك انه قصد بهذا الخطاب تفهيم من هو أهله وهم الاولياء والراسخون فى العلم وقد فهموا وليس من شرط من خاطب العقلاء بكلام أن يخاطبهم بما يفهم الصبيان والعوام بالاضافة الى العارفين كالصبيان بالاضافة الى البالغين ولكن على الصبيان أن يسألوا البالغين عما يفهمونه وعلى البالغين أن يجيبوا الصبيان بأن هذا ليس من شأنكم ولستم من أهله فخوضوا فى حديث غيره فقد قيل للجاهل فاسألوا أهل الذكر فان كانوا يطيقون فهمه فهموهم

وإلا قالوا لهم وما أوتيتم من العلم إلا قليلا فلا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم مالكم ولهذا السؤال هذه معان الايمان بها واجب والكيفية مجهولة أى مجهولة لكم والسؤال عنه بدعة كما قال مالك الاستواء معلوم والكيفية مجهولة والايمان به واجب فاذن الايمان بالجليات التى ليست مفصلة فى الذهن ممكن ولكن تقديسه الذى هو نفى للمحال عنه ينبغى أن يكون مفصلا فان المنفى هى الجسمية ولوازمها ونعنى بالجسم ههنا الشخص المقدر الطويل العريض العميق الذى يمنع غيره من أن يوجد بحيث هو الذى يدفع مايطلب مكانه ان كان قويا ويندفع ويتنحي عن مكانه بقوة دافعه ان كان ضعيفا وانما شرحنا هذا اللفظ مع ظهوره لأن العامى ربما لا يفهم المراد به .

(الوظيفة الثالثة — الاعتراف بالعجز) ويجب علي كل من لايقف على كنه هذه المعاني وحقيقتها ولم يعرف تأويلها والمعنى المراد به أن يقر بالعجز فان التصديق واجب وهو عن دركه عاجز فان ادعى المعرفة فقد كذب وهذا معنى قول مالك الكيفية مجهولة يعنى تفصيل المراد به غير معلوم بل الراسخون فى العلم والعارفون من الاولياء ان جاوزوا فى المعرفة حدود العوام وجالوا فى ميدان المعرفة وقطعوا من بواديها أميالا كثيرة فمابقى لهم مما لم يبلغوه وهو بين أيديهم أكثر بل لانسبة لما طوى عنهم الى ما كشف لهم لكثرة المطوى وقلة المكشوف بالإضافة اليه والاضافة الى المطوى المستور

(قال سيد الانبياء صلوات الله عليه لاأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك) وبالاضافة الى المكشوف (قال صلوات الله عليه أعرفكم بالله أخوفكم لله وأنا أعرفكم بالله) ولأجل كون العجز والقصور ضروريا فى آخر الأمر بالاضافة الى الى منتهى الحال (قال سيد الصديقين العجز عن درك الادراك ادراك) فأوائل حقائق هذه المعانى بالاضافة الى عوام الخلق كأواخرها بالاضافة الى خواص الخلق فكيف لايجب عليهم الاعتراف بالعجز.

(الوظيفة الرابعة — السكوت عن السؤال) وذلك واجب على العوام لانه بالسؤال متعرض لما لايطيقه وخائض فيما ليس أهلا فان سأل جاهلا زاده جوابه جهلا

وربما ورطه في الكفر من حيث لايشعر وان سأل عارفا عجز العارف عن تفهيمه بل عجز عن تفهيم ولده مصلحته فى خروجه إلى المكتب بل عجز الصائغ عن تفهيم النجار دقائق صناعته فان النجار و إن كان بصيرا بصناعته فهو عاجز عن دقائق الصياغة لأنه إنما يعلم دقائق النجر لاستغراقه العمر فى تعلمه وممارسته فكذلك يفهم الصائغ الصياغة أيضا لصرف العمر إلى تعلمه وممارسته وقبل ذلك لا يفهمه فالمشغولون بالدنيا وبالعلوم التى ليست من قبيل معرفة الله عاجزون عن معرفة الامور الالهية عجز كافة المعرضين عن الصناعات عن فهمها بل عجز الصبى الرضيع عن الاغتذاء بالخبز واللحم لقصور فى فطرته لا لعدم الخبز واللحم ولا لأنه قاصر على تغذية الأقوياء لكن طبع الضعفاء قاصر عن التغذى به فمن أطعم الصبى الضعيف اللحم والخبز أو مكنه من تناوله فقد أهلكه وكذلك العوام إذا طلبوا بالسؤال هذه المعانى يجب زجرهم ومنعهم وضربهم بالدرة كما كان يفعله عمر رضى الله عنه بكل من سأل عن الآيات المتشابهات وكما فعله ﷺ فى الانكار على قوم رآهم خاضوا فى مسئلة القدر وسألوا عنه فقال عليه السلام (فبهذا أمرتم وقال إنما هلك من كان قبلكم بكثرة السؤال) أو لفظ هذا معناه كما اشتهر فى الخبر ولهذا أقول يحرم على الوعاظ على رؤس المنابر الجواب عن هذه الأسئلة بالخوض فى التأويل والتفصيل بل الواجب عليهم الاقتصار على ماذكرناه وذكره السلف وهو المبالغة فى التقديس ونفى التشبيه وأنه تعالى منزه عن الجسمية وعوارضها وله المبالغة فى هذا بما أراد حتى يقول كل ماخطر ببالكم وهجس فى ضميركم وتصور فى خاطركم فالله تعالى خالقها وهو منزه عنها وعن مشابهتها وأن ليس المراد بالاخبار شيئاً من ذلك وأما حقيقة المراد فلستم من أهل معرفتها والسؤال عنها فاشتغلوا بالتقوى فما أمركم الله تعالى به فافعلوه ومانهاكم عنه فاجتنبوه وهذا قد نهيتم عنه فلا تسألوا عنه ومهماسمعتم شيئاً من ذلك فاسكتوا وقولوا آمنا وصدقنا وما أوتينا من العلم إلا قليلا وليس هذا من جملة ماأتيناه

(الوظيفة الخامسة — الأمساك) عن التصرف فى ألفاظ واردة ويجب على عموم الخلق الجمود على ألفاظ هذه الأخبار والامساك عن التصرف فيها من ستة أوجه التفسير والتأويل والتصريف والتفريع والجمع والتفريق (الأول) التفسير وأعنى

به تبديل اللفظ بلغة أخرى يقوم مقامها فى العربية أو معناها بالفارسية أو التركية. بل لايجوز النطق إلا باللفظ الوارد لأن من الألفاظ العربيةمالا يوجد لها فارسية تطابقها ومنها مايوجد لها فارسية تطابقهالكن ماجرت عادةالفرس باستعارتها للمعانى التى جرت عادة للعرب باستعارتها منها ومنها مايكون مشتركا فى العربية ولا يكون في المعجمة كذلك

(أما الأول) مثاله لفظ الاستواء فانه ليس له فى الفارسيةلفظ مطابق يؤدي بين الفرس من المعنى الذى يؤديه لفظ الاستواء بين العرب بحيث لايشتمل على مزيد ايهام اذفارسيته أن يقال ـ رأست باسناد ـ وهذان لفظان (الأول) ينبيء عن انتصاب واستقامة فيما يتصور أى ينحنى ويعوج (والثانى) ينبيء عن سكون وثبات فيما يتصور أن يتحرك ويضطرب واشعاره بهذه المعانى واشارته اليها فى العجمية أظهر من أشعار لفظ الاستواء واشارته اليها فاذا تفاوت فى الدلالة والاشعار لم يكن هذا مثل الأول وانما يجوز تبديل اللفظ بمثله المرادف له الذى لايخالفه بوجه من الوجوه لابما يباينه أو يخالفه ولو بأدنى شيء وأدقه وأخفاه

(مثال الثانى) أن الأصبع يستعار فى لسان العرب للنعمة يقال لفلان عندي أصبع أى نعمة ومعناها بالفارسية ـ انكشت ـ وما جرت عادة العجم بهذه الاستعارة وتوسع العرب فى التجوز والاستعارة أكثر من توسع العجم بل لانسبة لتوسع العرب الى جمود العجم فاذا حسن ارادة المعنى المستعار له فى العرب وسمج ذلك فى العجم نفر القلب عنها سمج ومجه السمع ولم يمل اليه فاذا تفاوتا لم يكن التفسير تبديلا بالمثل بل بالخلاف ولا يجوز التبديل الا بالمثل

(مثال الثالث) العين فان من فسره فانما يفسره بأظهر معانيه فيقول هو جسم وهو مشترك فى لغة العرب بين العضو الباصر وبين الماء والذهب والفضة وليس للفظ جسم وهو مشترك هذا الاشتراك وكذلك لفظ الجنب والوجه يقرب منه فلأجل هذا ترى المنع من التبديل والاقتصار على العربية فان قيل هذا التفاوت ان ادعيتموه فى جميع الألفاظ فهو غير صحيح اذ لافرق بين قولك خبز ونان وبين قولك لحم وكوشت. وان اعترف بان ذلك فى البعض فامنع من التبديل عند التفاوت لاعند التماثل.

فالجواب أن الحق أن التفاوت فى البعض لا فى الكل فلعل لفظ اليد ولفظ دست يتساويان فى اللغتين وفى الاشتراك والاستعارة وسائر الامور ولكن اذا انقسم الى مايجوز والى ما لايجوز وليس ادراك التميز بينهما والوقوف على دقائق التفاوت جليا سهلا يسيرا على كافة الخلق بل يكثر فيه الاشكال ولا يتميز محل التفاوت عن محل التعادل فنحن بين أن نحسم الباب احتياطا اذ لاحاجة ولا ضرورة إلى التبديل وبين أن نفتح الباب وتقحم عموم الخلق ورطة الخطر فليت شعرى أى الأمرين أحزم وأحوط والمنظور فيه ذات الاله وصفاته وما عندى أن عاقلا متدينا لايقربان هذا الأمر مخطر فان الخطر فى الصفات الآلهية يجب اجتنابه كيف وقد أوجب الشرع على الموطوءة العدة لبراءة الرحم وللحذر من خلط الأنساب احتياط الحكم الولاية والوراثة وما يترتب على النسب فقالوا مع ذلك تجب العدة على العقيم والآيسة والصغيرة وعند العزل لأن باطن الأرحام إنما يطلع عليه علام الغيوب فانه يعلم مافى الأرحام فلو فتحنا باب النظر إلى التفصيل كنا راكبين متن الخطر فايجاب العدة حيث لاعلوق أهون من ركوب هذا الخطر فكما أن إيجاب العدة حكم شرعى فتحريم تبديل العربية حكم شرعى ثبت بالاجتهاد وترجيح طريق الأول ويعلم أن الاحتياط فى الخبر عن الله وعن صفاته وعما أراده بألفاظ القرآن أهم وأولى من الاحتياط فى العدة وكل مااحتاط به الفقهاء من هذا القبيل .

(أما التصريف الثانى ـــ التأويل) وهو بيان معناه بعد ازالة ظاهره وهذا إما أن يقع من العامى نفسه أو من العارف مع العامى أو من العارف مع نفسه بينه وبين ربه فهذه ثلاثة مواضع .

(الأول) تأويل العامى على سبيل الاشتغال بنفسه وهو حرام يشبه خوض البحر المغرق ممن لايحسن السباحة ولا شك فى تحريم ذلك وبحر معرفة الله أبعد غورا وأكثر معاطب ومهالك من بحر الماء لأن هلاك هذا البحر لاحياة بعده وهلاك بحر الدنيا لايزيل إلا الحياة الفانية وذلك يزيل الحياة الأبدية فشتان بين الخطرين .

(الموضع الثانى) أن يكون ذلك من العالم مع العامى وهو أيضا ممنوع ومثاله

أن يجر السباح الغواص فى البحر مع نفسه عاجزا عن السباحة مضطرب القلب والبدن وذلك حرام لأنه عرضة لخطر الهلاك فانه لايقوي على حفظه فى لجة البحر وان قدر على حفظه فى القرب من الساحل ولو أمره بالوقوف بقرب الساحل لايطيعه وان أمره بالسكون عند التطام الأمواج واقبال التماسيح وقد فغرت فاها للالتقام اضطرب قلبه وبدنه ولم يسكن على حسب مراده لقصور طاقته وهذا هو المثال الحق للعالم اذا فتح للعامى باب التأويلات والتصرف فى خلاف الظواهر وفى معنى العوام الأديب والنحوى والمحدث والمفسر والفقيه والمتكلم بل كل عالم سوي المتجردين لتعلم السباحة فى بحار المعرفة القاصرين أعمارهم عليه الصارفين وجوههم عن الدنيا والشهوات المعرضين عن المال والجاه والخلق وسائر اللذات المخلصين لله تعالى فى العلوم والأعمال العاملين بجميع حدودالشريعة وآدابها فى القيام بالطاعات وترك المنكرات المفرغين قلوبهم بالجملة عن غير الله تعالى لله المستحقرين للدنيا بل الآخرة والفردوس الأعلى فى جنب محبة الله تعالى فهؤلاء هم أهل الغوص فى بحر المعرفة وهم مع ذلك كله على خطر عظيم يهلك من العشرة تسعة الى أن يسعد واحد بالدر المكنون والسر المخزون (أولئك الذين سبقت لهم من الله الحسنى فهم الفائزون وربك اعلم بما تكن صدورهم وما يعلنون)

(الموضع الثالث) تأويل العارف مع نفسه فى سر قلبه بينه وبين ربه وهو على ثلاثة أوجه فان الذى انقدح فى سره أن المراد به من لفظ الاستواء والفوق مثلا اما أن يكون مقطوعا به أو مشكوكا فيه أو مظنونا ظنا غالبا فان كان قطعيا فليعتقده وان كان مشكوكا فليجتنبه ولا يحكمن على مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ من كلامه باحتمال يعارضه مثله من غير ترجيح بل الواجب على الشاك التوقف وان كان مظنونا فاعلم أن للظن متعلقين . أحدهما أن المعنى الذى انقدح عنده هل هو جائز فى حق الله تعالى أم هو محال والثانى أن يعلم قطعا جوازه لكن تردد فى أنه هل هو مراده أم لا (مثال الاول) تأويل لفظ الفوق بالعلو المعنوى الذي هو المراد بقولنا السلطان فوق الوزير فانا لانشك فى ثبوت معناه لله تعالى لكنا ربما نتردد فى أن لفظ الفوق في قوله (يخافون ربهم من فوقهم) هل أريد به العلو المعنوى أم أريد به معنى آخر يليق

بجلال الله تعالى دون العلو بالمكان الذى هو محال على ما ليس بجسم ولا هو صفة في جسم (ومثال الثانى) تأويل لفظ الاستواء على العرش بأنه أراد به النسبة الخاصة التى للعرش ونسبته ان الله تعالى يتصرف فى جميع العالم ويدبر الأمر من السماء إلى الأرض بواسطة العرش فانه لايحدث فى العالم صورة مالم يحدثه فى العرش كما لايحدث النقاش والكاتب صورة وكلمة على البياض مالم يحدثه في الدماغ بل لا يحدث البناء صورة الأبنية مالم يحدث صورتها فى الدماغ فبواسطة الدماغ يدبر القلب أمر عالمه الذي هو بدنه فربما تتردد فى أن اثبات هذه النسبة للعرش الى الله تعالى هل هو جائز إما لوجوبه فى نفسه أو لانه أجرى به سنته وعادته وان لم يكن خلافه محالا كما أجري عادته فى حق قلب الانسان بأن لا يمكنه التدبير إلا بواسطة الدماغ وان كان فى قدرة الله تعالى تمكينه منه دون الدماغ لو سبقت به إرادته الأزلية وحقت به الكلمة القديمة التى هى علمه فصار خلافه ممتنعا لا لقصور فى ذات القدرة لكن لاستحالة ما يخالف الارادة القديمة والعلم السابق الازلى ولذلك قال (ولن تجد لسنة الله تبديلا) وانما لا تتبدل لوجوبها وانما وجوبها لصدورها عن إرادة أزلية واجبة ونتيجة الواجب واجبة ونقيضها محال وإن لم يكن محالا فى ذاته ولكنه محال لغيره وهو افضاؤه الى أن ينقلب العلم الازلى جهلا ويمتنع نفوذ المشيئة الأزلية فاذا اثبات هذه النسبة لله تعالى مع العرش فى تدبير المملكة بواسطته إن كان جائزا عقلا فهل واقع وجودا هذا مما قد يتردد فيه الناظر وربما يظن وجوده هذا مثال الظن فى نفس المعنى والأول مثال الظن فى كون المعنى مراد باللفظ مع كون المعنى فى نفسه صحيحا جائزا وبينهما فرقان لكن كل واحد من الظنين إذا أنقدح فى النفس وحاك فى الصدر فلا يدخل تحت الاختيار دفعه عن النفس ولا يمكنه أن لا يظن فان للظن أسبابا ضرورية لا يمكن دفعها و (لا يكلف الله نفسا الا وسعها) لكن عليه وظيفتان إحداهما أن لا يدع نفسه تطمئن اليه جزما من غير شعور بامكان الغلط فيه ولا ينبغى أن يحكم مع نفسه بموجب ظنه حكما جازما

(والثانية) أنه إن ذكره لم يطلق القول بان المراد بالاستواء كذا أو المراد بالفوق كذا لأنه حكم بما لا يعلم وقد قال الله تعالى (ولا تقف ماليس لك به علم) لكن يقول أنا أظن أنه كذا فيكون صادقا فى خبره عن نفسه وعن ضميره ولا يكون حكما

على صفة الله ولا على مراده بكلامه بل حكما على نفسه ونبأ عن ضميره فان قيل وهل يجوز ذكر هذا الظن مع كافة الخلق والتحدث به كما اشتمل عليه ضميره وكذلك لو كان قاطعا فهل له أن يتحدث به قلنا تحدثه به إنما يكون على أربعة أوجه فاما أن يكون مع نفسه أو مع من هو مثله فى الاستبصار أو مع من هو مستعد للاستبصار بذكائه وفطنته وتجرده لطلب معرفة الله تعالى أو مع العامى فان كان قاطعا فله أن يحدث نفسه به ويحدث من هو مثله فى الاستبصار أو من هو متجرد لطلب المعرفة مستعد له خال عن الميل إلى الدنيا والشهوات والتعصبات للمذاهب وطلب المباهاة بالمعارف والتظاهر بذكرها مع العوام فمن اتصف بهذه الصفات فلا بأس بالتحدث معه لأن الفطن المتعطش إلى المعرفة للمعرفة لا لغرض آخر يحيك فى صدره أشكال الظواهر وربما يلقيه فى تأويلات فاسدة لشدة شرهه على الفرار عن مقتضى الظواهر ومنع العلم أهله ظلم كبثه الى غير أهله وأما العامى فلا ينبغى أن يحدث به وفى معنى العامى كل من لا يتصف بالصفات المذكورة بل مثاله ما ذكرناه من اطعام الرضيع الاطعمة القوية التى لا يطيقها وأما المظنون فتحدثه مع نفسه اضطرار فان ما ينطوى عليه الذهن من ظن وشك وقطع لا تزال النفس يتحدث به ولا قدرة على الخلاص منه فلا منع منه ولا شك في منع التحدث به مع العوام بل هو أولى بالمنع من المقطوع أما تحدثه مع من هو فى مثل درجته فى المعرفة أو مع المستعد له ففيه نظر فيحتمل أن يقال هو جائز ولا يزيد على أن يقول أظن كذا وهو صادق ويحتمل المنع لأنه قادر على تركه وهو بذكره متصرف بالظن فى صفة الله تعالى أو فى مراده من كلامه وفيه خطر وإباحته تعرف بنص أو اجماع أو قياس على منصوص ولم يرد شىء من ذلك بل ورد قوله تعالى (ولا تقف ماليس لك به علم) فان قيل يدل على الجواز ثلاثة أمور

(الاول) الدليل الذى دل على إباحة الصدق وهو صادق فانه ليس يخبر إلا عن ظنه وهو ظان.

(الثانى) أقاويل المفسرين فى القرآن بالحدس والظن اذ كل ماقالوه غير مسموع من الرسول عليه السلام بل هو مستنبط بالاجتهاد ولذلك كثرت الأقاويل وتعارضت.

(الثالث) اجماع التابعين على نقل الاخبار المتشابهة التى نقلها آحاد الصحابة ولم تتواتر وما اشتمل عليه الصحيح الذى نقله العدل على العدل فانهم جوزوا روايته ولا يحصل بقول العدل الا الظن والجواب عن الأول أن المباح صدق لا يخشى منه ضرر وبث هذه الظنون لا يخلو عن ضرر فقد يسمعه من يسكن اليه ويعتقده حزما فيحكم فى صفات الله تعالى بغير علم وهو خطر والنفوس نافرة عن اشكال الظواهر فاذا وجد مستروحا من المعنى ولو كان مظنونا سكن اليه واعتقده جزما وربما يكون غلطا فيكون قد اعتقد فى صفات الله تعالى ما هو الباطل أو حكم عليه فى كلامه بما لم يرد به (وأما الثانى) وهو أقاويل المفسرين بالظن فلا نسلم ذلك فيما هو من صفات الله تعالى كالاستواء والفوق وغيره بل لعل ذلك فى الأحكام الفقهية أو فى حكايات أحوال الانبياء والكفار والمواعظ والأمثال ومالا يعظم خطر الخطأ فيه (وأما الثالث) فقد قال قائلون لا يجوز أن يعتمد فى هذا الباب إلا ماورد فى القرآن أو تواتر عن الرسول ﷺ تواتر يفيد العلم فأما اخبار الآحاد فلا يقبل فيه ولا نشتغل بتأويله عند من يميل الى التأويل ولا بروايته عند من يقتصر على الرواية لأن ذلك حكم بالمظنون واعتماد عليه وما ذكروه ليس ببعيد لكنه مخالف لظاهر ما درج عليه السلف فانهم قبلوا هذه الاخبار من العدول ورووها وصححوها فالجواب من وجهين .

(أحدهما) أن التابعين كانوا قد عرفوا من أدلة الشرع أنه لا يجوز اتهام العدل بالكذب لا سيما فى صفات الله تعالى فاذا روى الصديق رضى الله عنه خبرا وقال سمعت رسول الله ﷺ يقول كذا فرد روايته تكذيب له ونسبة له الى الوضع أو الى السهو فقبلوه وقالوا قال أبو بكر قال رسول الله ﷺ وقال أنس قال رسول الله عليه السلام وكذا فى التابعين فالآن اذا ثبت عندهم بأدلة الشرع أنه لا سبيل الى اتهام العدل التقى من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين فمن أين يجب أن لا يتهم ظنون الآحاد وأن ينزل الظن منزلة نقل العدل مع أن بعض الظن اثم فاذا قال الشارع ما أخبركم به العدل فصدقوه واقبلوه وانقلوه واظهروه فلا يلزم من هذا أن يقال ما حدثتكم به نفوسكم من ظنونكم فأقبلوه وأظهروه وأرووا عن

ظنونكم وضمائركم ونفوسكم ما قلته فليس هذا فى معنى المنصوص ولهذا نقول مازاد غير العدل من هذا الجنس ينبغى أن يعرض عنه ولا يروى ويحتاط فيه أكثر مما يحتاط فى المواعظ والامثال وما يجرى مجراها .

(والجواب الثانى) ان تلك الأخبار روتها الصحابة لأنهم سمعوه يقينا فما نقلوا لا ماتيقنوه والتابعون قبلوه ورووه وما قالوا قال رسول الله عليه السلام كذا بل قالوا قال فلان قال رسول الله عليه السلام كذا وكانوا صادقين وما أهملوا روايته لاشتمال كل حديث على فوائد سوى اللفظ الموهم عند العارف معنى حقيقا يفهمه منه ليس ذلك ظنيا فى حقه مثاله رواية الصحابى عن رسول الله عليه السلام (قوله ينزل الله تعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا فيقول هل من داع فاستجيب له وهل من مستغفر فاغفر له) الحديث فهذا الحديث سيق لنهاية الترغيب فى قيام الليل وله تأثير عظيم فى تحريك الدواعى للتهجد الذى هو أفضل العبادات فلو ترك هذا الحديث لبطلت هذه الفائدة العظيمة ولا سبيل الى اهمالها وليس فيه إلا ايهام لفظ النزول عند الصبى والعامى الجارى مجرى الصبى وما أهون على البصير ان يغرس فى قلب العامى التنزيه والتقديس عن صورة النزول بان يقول له ان كان نزوله إلى السماء الدنيا ليسمعنا نداء وقوله فما أسمعنا فأى فائدة فى نزوله ولقد كان يمكنه أن ينادينا كذلك وهو على العرش أو على السماء العليا فهذا القدر يعرف العامى ان ظاهر النزول باطل بل مثاله ان يريد من فى المشرق اسماع شخص فى المغرب ومناداته فيتقدم إلى المغرب باقدام معدودة وأخذ يناديه وهو يعلم انه لا يسمع فيكون نقله الأقدام عملا باطلا وفعلا كفعل المجانين فكيف يستقر مثل هذا فى قلب عاقل بل يضطر بهذا القدر كل عامى إلى أن يتيقن نفى صورة النزول وكيف وقد علم استحالة الجسمية عليه واستحالة الانتقال على غير الأجسام كاستحالة النزول من غير انتقال فاذا الفائدة فى نقل هذه الأخبار عظيمة والضرر يسير فانى يساوى هذا حكاية الظنون المنقدحة فى الأنفس فهذه سبل تجاذب طرق الاجتهاد فى اباحة ذكر التأويل المظنون أو المنع ولا يبعد ذكر وجه ثالث وهو أن ينظر إلى قرائن حال السائل والمستمع فان علم أنه ينتفع بذكره وإن علم أنه يتضرر تركه وإن ظن أحد الأمرين كان ظنه كالعلم فى اباحة الذكر وكم

من انسان لاتتحرك داعيته باطنا إلى معرفة هذه المعاني ولايحيك فى نفسه اشكال من ظواهرها فذكر التأويل معه مشوش وكم من انسان يحيك فى نفسه أشكال الظاهر حتى يكاد أن يسوء اعتقاده فى الرسول عليه السلام وينكر قوله الموهم فمثل هذا لوذكر معه الاحتمال المظنون بل مجرد الاحتمال الذى ينبو عنه اللفظ انتفع به ولابأس بذكره معه فانه دواء لدائه وإن كان داء فى غيره ولكن لاينبغي أن يذكر على رؤس المنابر لأن ذلك يحرك الدواعى الساكنة من أكثر المستمعين وقد كانوا عنه غافلين وعن أشكاله منفكين ولما كان زمان السلف الأول زمان سكون القلب بالغوا فى الكف عن التأويل خيفة من تحريك الدواعى وتشويش القلوب فمن خالفهم فى ذلك الزمان فهو الذى حرك الفتنة وألقى هذه الشكوك فى القلوب مع الاستغناء عنه فباء بالاسم أما الان وقد فشا ذلك فى بعض البلاد فالعذر فى إظهار شيء من ذلك رجاء لاماطة الأوهام الباطلة عن القلوب أظهر واللوم عن قائله أقل فان قيل فقد فرقتم بين التأويل المقطوع والمظنون فبماذا يحصل القطع بصحة التأويل قلنا بأمرين

(أحدهما) أن يكون المعنى مقطوعا ثبوته لله تعالى كفوقية المرتبة

(الثانى) أن لا يكون اللفظ إلا محتملا لأمرين وقد بطل أحدهما وتعين الثانى مثاله قوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) فانه ان ظهر في وضع اللسان أن الفوق لا يحتمل إلا فوقية المكان أو فوقية الرتبة وقد بطل فوقية المكان لمعرفة التقديس لم يبق الا فوقية الرتبة كما يقال السيد فوق العبد والزوج فوق الزوجة والسلطان فوق الوزير فالله فوق عباده بهذا المعنى وهذا كالمقطوع به فى لفظ الفوق وأنه لا يستعمل فى لسان العرب إلا فى هذين المعنيين أما لفظ الاستواء الى السماء وعلى العرش ربما لا ينحصر مفهومه فى اللغة هذا الانحصار واذا تردد بين ثلاثة معان معنيان جائزان على الله تعالى ومعنى واحد هو الباطل فتنزيله على أحد المعنيين الجائزين أن يكون بالظن وبالاحتمال المجرد وهذا تمام النظر فى الكف عن التأويل .

(التصرف الثالث) الذى يجب الامساك عنه التصرف ومعناه أنه اذا ورد قوله تعالى (استوى على العرش) فلا ينبغي أن يقال مستو ويستوى لأن المعنى

يجوز أن يختلف لان دلالة قوله هو مستو على العرش على الاستقرار أظهر من قوله (رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش) الآية بل هو كقوله (خلق لكم مافى الارض جميعا ثم استوى الى السماء) فان هذا يدل على استواء قد انقضى من اقبال على خلقه أو على تدبير المملكة بواسطته ففى تغيير التصاريف مايوقع فى تغيير الدلالات والاحتمالات فليجتنب التصريف كما يجتنب الزيادة فان تحت التصريف الزيادة والنقصان

(التصرف الرابع) : الذي يجب الامساك عنه القياس والتفريع مثل أن يرد لفظ اليد فلا يجوز اثبات الساعد والعضد والكف مصيرا الى أن هذا من لوازم اليد واذا ورد الاصبع لم يجز ذكر الانملة كما لا يجوز ذكر اللحم والعظم والعصب وان كانت اليد المشهورة لاتنفك عنه وأبعد من هذه الزيادة اثبات الرجل عند ورود اليد واثبات الفم عند ورود العين أو عند ورود الضحك واثبات الأذن والعين عند ورود السمع والبصر وكل ذلك محال وكذب وزيادة وقد يتجاسر بعض الحمقى من المشبهة الحشوية فلذلك ذكرناه

(التصرف الخامس) : لا يجمع بين متفرق ولقد بعد عن التوفيق من صنف كتابا فى جمع هذه الاخبار خاصة ورسم فى كل عضو بابا فقال باب فى اثبات الرأس وباب فى اليد الى غير ذلك وسماه كتاب الصفات فان هذه كلمات متفرقة صدرت من رسول الله عليه السلام فى أوقات متفرقة متباعدة اعتمادا على قرائن مختلفة تفهم السامعين معانى صحيحة فاذا ذكرت مجموعة على مثال خلق الانسان صار جمع تلك المتفرقات فى السمع دفعة واحدة قرينة عظيمة فى تأكيد الظاهر وايهام التشبيه وصار الاشكال فى أن الرسول عليه السلام لم نطق بما يوهم خلاف الحق أعظم فى النفس وأوقع بل الكلمة الواحدة يتطرق اليها الاحتمال فاذا اتصل بها ثانية وثالثة ورابعة من جنس واحد صار متواليا بضعف الاحتمال بالاضافة الى الجملة ولذلك يحصل من الظن بقول المخبرين وثلاثة مالا يحصل بقول الواحد بل يحصل من العلم القطعى بخبر التواتر مالا يحصل بالآحاد ويحصل من العلم القطعى باجتماع التواتر مالا يحصل بالآحاد وكل ذلك نتيجة الاجتماع اذ يتطرق الاحتمال الى قول كل عدل والى كل واحدة من

القرائن فاذا انقطع الاحتمال أو ضعف فلذلك لايجوز جمع المتفرقات

(التصرف السادس) : التفريق بين المجتمعات فكما لايجمع بين متفرقة فلا يفرق بين مجتمعة فان كل كلمة سابقةعلى كلمة أو لاحقة لها مؤثرة فى تفهيم معناه مطلقا ومرجحةالاحتمال الضعيف فيه فاذا فرقت وفصلت سقطت دلالتها مثالهقوله تعالى (وهو القاهر فوق عباده) لا تسلط علي أن يقول القائل هو فوق لأنه اذا ذكر القاهر قبله ظهر دلالة الفوق على الفوقية التى للقاهر مع المقهور وهى فوقية الرتبة ولفظ القاهريدل عليه بل لايجوز أن يقول وهو القاهر فوق غيره بل ينبغى أن يقول فوق عباده لان ذكر العبودية فى وصفه فى الله فوقه يؤكد احتمال فوقية السيادة اذ لايحسن أن يقال زيد فوق عمر وقبل أن يتبين تفاوتهما فى معنى السيادة والعبودية أو غلبة القهر أو نفوذ الأمربالسلطنة أو بالابوةأوبالزوجية فهذه الامور يغفل عنهاالعلماء فضلا عن العوامفكيف يسلط العوام فى مثل ذلك علي التصرف بالجمع والتفريق والتأويل والتفسير وأنواع التغيير ولأجل هذه الدقائق بالغ السلف فى الجمود والاقتصارعلى مواردالتوقيف كما ورد على الوجهالذى ورد وباللفظ الذى ورد والحق ماقالوه والصواب مارأوه فأهم المواضع بالاحتياط ما هو تصرف فى ذات الله وصفاته وأحق المواضع بالجام اللسان وتقييد عن الجريان فيما يعظم فيه الخطر وأى خطر أعظم من الكفر

(الوظيفة السادسة) : فى الكف بعد الامساك وأعنى بالكف كف الباطن عن التفكر فى هذه الامور فذلك واجب عليه كما وجب عليه امساك اللسان عن السؤال والتصرف وهذا أثقل الوظائف وأشدها وهو واجب كما وجب على العاجز الزمن أن لا يخوض غمرة البحار وان كان يتقاضاه طبعه أن يغوص فى البحار ويخرج دررها وجواهرها ولكن لاينبغى أن يغره نفاسة جواهرها مع عجزه عن نيلهابل ينبغى أن ينظر الى عجزه وكثرة معاطبها ومهالكها ويتفكر أنه انفاته نفائس البحار فما فاته الازديادات وتوسعات فى المعيشة وهو مستغن عنها فان غرق أو التقمه تمساح فاته أصل الحياة فان قلت ان لم ينصرف قلب من التفكر والتشوف الى البحث فما طريقه قلت طريقه أن يشغل نفسه بعبادة الله وبالصلاة وقراءة القرآن والذكر

فان لم يقدر فيعلم آخر لايناسب هذا الجنس من لغة أو نحو أو خط أوطب أوفقه فان لم يمكنه فبحرفة أو صناعة ولو الحراثة والحباكة فان لم يقدر فبلعب ولهو وكل ذلك خير له من الخوض في هذا البحر البعيد غوره وعمقه العظيم خطره وضرره بل لو اشتغل العامى بالمعاصى البدنية ربما كان أسلم له من أن يخوض فى البحث عن معرفة الله تعالى فان ذلك غايته الفسق وهذا عاقبته الشرك (وان الله لايغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) فان قلت العامى اذا لم تسكن نفسه الى الاعتقادات الدينية الا بدليل فهل يجوز أن يذكر له الدليل فان جوزت ذلك فقد رخصت له فى التفكر والنظر وأى فرق بينه وبين غيره (الجواب) انى أجوزله أن يسمع الدليل على معرفة الخالق ووحدانيته وعلى صدق الرسول وعلى اليوم الآخرولكن بشرطين (أحدهما) : أن لا يزاد معه على الأدلة التى فى القرآن (والآخر) أن لايمارى فيه الا مراء ظاهرا ولا يتفكر فيه إلا تفكرا سهلا جليا ولا يمعن فى التفكر ولا يوغل غاية الايغال في البحث وأدلة هذه الأمور الأربعة ما ذكر فى القرآن أما الدليل على معرفة الخالق فمثل قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله) وقوله (أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد) وكقوله (فلينظر الانسان الى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعنبا وقضبا وزيتونا ونخلا وحدائق غلبا وفاكهة وأبا)

(وقوله ألم نجعل الأرض مهادا والجبال أوتادا الى قوله وجنات ألفافا) وأمثال ذلك وهى قريب من خمسمائة آية جمعناها فى «كتاب جواهر القرآن» بها ينبغى أن يعرف الخلق جلال الله الخالق وعظمته لا بقول المتكلمين أن الاعراض حادثة وأن الجواهر لا تخلو عن الاعراض الحادثة فهى حادثة ثم الحادث يفتقر الى محدث فان تلك التقسيمات والمقدمات واثباتها بأدلتها الرسمية يشوش قلوب العوام

والدلالات الظاهرة القريبة من الافهام على ما فى القرآن تنفعهم وتسكن نفوسهم وتغرس فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة وأما الدليل على الوحدانية فيقنع فيه بما في القرآن من قوله (لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا) فان اجتماع المدبرين سبب افساد التدبير (وبمثل) قوله (لو كان معه آلهة كما يقولون اذاً لابتغوا الى ذى العرش سبيلا) وقوله تعالى (ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذاً لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض)

(وأما صدق) : الرسول فيستدل عليه بقوله تعالى (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وبقوله (فأتوا بسورة من مثله) وقوله (قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات) وأمثاله

(وأما اليوم الآخر) : فيستدل عليه بقوله (قال من يحي العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) وبقوله (أيحسب الانسان أن يترك سدا ألم يك نطفة من مني يمنى) الى قوله (أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى) وبقوله (ياأيها الناس ان كنتم فى ريب من البعث فانا خلقناكم من تراب) الى قوله (فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ان الذى أحياها لمحيي الموتى) وأمثال ذلك كثير فى القرآن فلا ينبغى أن يزد عليه فان قيل فهذه الأدلة التى اعتمدها المتكلمون وقرروا وجه دلالتها فما بالهم يمتنعون عن تقرير هذه الأدلة ولا يمنعون عنها وكل ذلك مدرك بنظر العقل وتأمله فان فتح للعامى باب النظر فليفتح مطلقا أو ليسد عليه طريق النظر رأسا وليكلف التقليد من غير دليل

(والجواب) أن الأدلة تنقسم الى ما يحتاج فيه الى تفكر وتدقيق خارج عن عن طاقة العامى وقدرته والى ماهو جلي سابق الى الأفهام ببادىء الرأى من أول النظر مما يدركه كافة الناس بسهولة فهذا لاخطر فيه وما يفتقر الى التدقيق فليس على حد وسعه فأدلة القرآن مثل الغذاء ينتفع به كل انسان وأدلة المتكلمين مثل الدواء ينتفع به آحاد الناس ويستضر به الاكثرون بل أدلة القرآن كالماء الذى ينتفع به الصبي الرضيع والرجل القوى وسائر الأدلة كالاطعمة التى ينتفع بها الاقوياء مرة ويمرضون بها أخري ولا ينتفع بها الصبيان أصلا ولهذ قلنا أدلة

القرآن أيضا ينبغي أن يصغى اليها اصغاءه الى كلام جلي ولا يماري فيه إلا مراءاً ظاهرا ولا يكلف نفسه تدقيق الفكر وتحقيق النظر فمن الجلي أن من قدر على الابتداء فهو على الاعادة أقدر كما قال (هو الذى يبدؤ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه) وأن التدبير لا ينتظم فى دار واحدة بمدبرين فكيف ينتظم فى كل العالم وأن من خلق علم كما قال تعالى (ألا يعلم من خلق) فهذه الأدلة تجرى للعوام مجرى الماء الذى جعل الله منه كل شيء حى وماأخذته المتكلمون وراء ذلك من تنقير وسؤال وتوجيه أشكال ثم اشتغال بحله فهو بدعة وضرره فى حق أكثر الخلق ظاهر فهو الذى ينبغي أن يتوقى والدليل على تضرر الخلق به المشاهدة والعيان والتجربة وما ثار من الشر منذ نبغ المتكلمون وفشت صناعة الكلام مع سلامة العصر الأول من الصحابة عن مثل ذلك ويدل عليه أيضا أن رسول الله ﷺ والصحابة بأجمعهم ما سلكوا فى المحاجة مسلك المتكلمون فى تقسيماتهم وتدقيقاتهم لا لعجز منهم عن ذلك فلو علموا أن ذلك نافع لأطنبوا فيه ولخاضوا فى تحرير الأدلة خوضا يزيد على خوضهم فى مسائل الفرائض فان قيل انما أمسكوا عنه لقلة الحاجة فان البدع إنما نبغت بعدهم فعظم حاجة المتأخرين وعلم الكلام راجع الى علم معالجة المرضى بالبدع فلما قلت فى زمانهم أمراض البدع قلت عنايتهم بجميع طرق المعالجة فالجواب من وجهين

(أحدهما) : أنهم فى مسائل الفرائض مااقتصروا على بيان حكم الوقائع بل وضعوا المسائل وفرضوا فيها ما تنقضى الدهور ولا يقع مثله لان ذلك مما أمكن وقوعه فصنفوا علمه ورتبوه قبل وقوعه اذا علموا أنه لاضرر فى الخوض فيه وفى بيان حكم الواقعة قبل وقوعها والعناية بازالة البدع ونزعها عن النفوس أهم فلم يتخذوا ذلك صناعة لانهم عرفوا ان الاستضرار بالخوض فيه أكثر من الانتفاع ولولا أنهم كانوا قد حذروا من ذلك وفهموا تحريم الخوض لخاضوا فيه

(والجواب الثانى) : انهم كانوا محتاجين الى محاجة اليهود والنصارى فى اثبات نبوة محمد ﷺ والى اثبات البعث مع منكريه ثم ما زادوا فى هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن فمن أقنعه ذلك قبلوه ومن لم يقنع قتلوه وعدلوا الى السيف

والسنان بعد افشاء أدلة القرآن وما ركبوا ظهر اللجاج في وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طريق المجادلة وتذليل طرقها ومناهجها كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن لا يقمعه الا السيف والسنان فما بعد بيان الله بيان على أننا ننصف ولا ننكر أن حاجة المعالجة تزيد بزيادة المرض وان لطول الزمان وبعد العهد عن عصر النبوة تأثيرا فى إثارة الاشكالات وان للعلاج طريقين

(أحدهما) : الخوض فى البيان والبرهان الى أن يصلح واحد يفسد به اثنان فان صلاحه بالاضافة الى الاكياس وفساده بالاضافة الى البله وما أقل الاكياس وما أكثر البله والعناية بالاكثرين أولى

(والطريق الثانى) : طريق السلف فى الكف والسكوت والعدول الى الدرة والسوط والسيف وذلك مما يقنع الاكثرين وان كان لا يقنع الاقلين وآية اقناعه ان من يسترق من الكفار من العبيد والاماء تراهم يسلمون تحت ظلال السيوف ثم يستمرون عليه حتى يصير طوعا ما كان فى البداية كرها ويصير اعتقادا جزما ما كان فى الابتداء مراء وشكا وذلك بمشاهدة أهل الدين والمؤانسة بهم وسماع كلام الله ورؤية الصالحين وخبرهم وقرائن من هذا الجنس تناسب طباعهم مناسبة أشد من مناسبة الجدل والدليل فاذا كان كل واحد من العلاجين يناسب قوما دون قوم وجب ترجيح الأنفع فى الأكثر فالمعاصرون للطبيب الاول المؤيد بروح القدس المكاشف من الحضرة الالهية الموحى اليه من الخبير البصير بأسرار عباده وبواطنهم أعرف بالأصوب والأصلح قطعا فسلوك سبيلهم لا محالة أولى

(الوظيفة السابعة) : التسليم لأهل المعرفة وبيانه انه يجب على العامى أن يعتقد أن ما انطوى عنه من معانى هذه الظواهر وأسرارها ليس منطويا عن رسول الله ﷺ وعن الصديق وعن أكابر الصحابة وعن الأولياء والعلماء الراسخين وانه انما انطوى عنه لعجزه وقصور معرفته فلا ينبغى أن يقيس بنفسه غيره فلا تقاس الملائكة بالحدادين وليس ما يخلوا عنه مخادع العجائز يلزم منه أن يخلو عنه خزائن الملوك فقد خلق الناس أشتاتا متفاوتين كمعادن الذهب والفضة وسائر الجواهر فانظر الى تفاوتها وتباعد ما بينها صورة ولونا وخاصية ونفاسة فكذلك القلوب معادن لسائر جواهر المعارف

فبعضها معدن النبوة والولاية والعلم ومعرفة الله تعالى وبعضها معدن للشهوات البهيمية والأخلاق الشيطانية بل ترى الناس يتفاوتون فى الحرف والصناعات فقد يقدر الواحد بخفة يده وحذاقة صناعته على أمور لا يطمع الآخر فى بلوغ أوائله فضلا عن غايته ولو اشتغل بتعلمه جميع عمره فكذلك معرفة الله تعالى بل كما ينقسم الناس الى جبان عاجز لا يطيق النظر الى التطام أمواج البحر وان كان على ساحله والى من يطيق ذلك ولكن لا يمكنه الخوض فى أطرافه وان كان قائما فى الماء على رجله والى من يطيق ذلك لكن لا يطيق رفع الرجل عن الارض اعتمادا على السباحة والى من يطيق السباحة الى حد قريب من الشط لكن لا يطيق خوض البحر الى لجته والمواضع المغرقة المخطرة والى من يطيق ذلك لكن لا يطيق الغوص فى عمق البحر الى مستقره الذي فيه نفائسه وجواهره فهكذا مثال بحر المعرفة وتفاوت الناس فيه مثله حذو القذة بالقذة من غير فرق

(فان قيل) : فالعارفون محيطون بكمال معرفة الله سبحانه حتى لا ينطوى عنهم شيء قلنا هيهات فقد بينا بالبرهان القطعى فى كتاب المقصد الأسنى فى معاني أسماء الله الحسنى أنه لا يعرف الله كنه معرفته الا الله وإن الخلائق وإن اتسعت معرفتهم وغزر علمهم فاذا أضيف ذلك إلى علم الله سبحانه فما أتوا من العلم إلا قليلا لكن ينبغى أن يعلم أن الحضرة الالهية محيطة بكل مافى الوجود إذ ليس فى الوجود الا الله وأفعاله فالكل من الحضرة الالهية كما أن جميع أرباب الولايات فى المعسكر حتى الحراس هم من المعسكر فهم من جملة الحضرة السلطانية وأنت لا تفهم الحضرة الالهيه الا بالتمثيل الى الحضرة السلطانية فاعلم ان كل مافى الوجود داخل فى الحضرة الالهية ولكن كما أن السلطان له فى مملكته قصر خاص وفى فناء قصره ميدان واسع ولذلك الميدان عتبة يجتمع عليها جميع الرعايا ولا يمكنون من مجاوزة العتبة ولا الى طرف الميدان ثم يؤذن لخواص المملكة فى مجاوزة العتبة ودخول الميدان والجلوس فيه على تفاوت فى القرب والبعد بحسب مناصبهم وربما لم يطرق الى القصر الخاص الا الوزير وحده ثم ان الملك يطلع الوزير من أسرار ملكه على ما يريد ويستأثر عنه بأمور لا يطلعه عليها فكذلك فافهم من هذا المثال تفاوت

الخلق فى القرب والبعد من الحضرة الالهية فالعتبة التى هى آخر الميدان موقف جميع العوام ومردهم لاسبيل لهم الى مجاوزتها فان جاوز واحدهم استوجبوا الزجر والتنكيل وأما العارفون فقد جاوزوا العتبة وانسرحوا فى الميدان ولهم فيه جولان على حدود مختلفة فى القرب والبعد وتفاوت مابينهم كثير وان اشتركوا فى مجاوزة العتبة وتقدموا على العوام المفترشين وأما حظيرة القدس فى صدر الميدان فهى أعلى من أن يطأها أقدام العارفين وأرفع من أن يمتد اليها أبصار الناظرين بل لايلمح ذلك الجناب الرفيع صغير وكبير إلا غض من الدهشة والحيرة طرفه فانقلب اليه البصر خاسئا وهو حسير فهذا مايجب على العامى أن يؤمن به جملة وان لم يحط به تفصيلا فهذه هى الوظائف السبع الواجبة على عوام الخلق فى هذه الاخبار التى سألت عنها وهي حقيقة مذهب السلف وأما الآن فنشتغل باقامة الدليل على أن الحق هو مذهب السلف

الباب الثانى فى اقامة البرهان على أن الحق مذهب السلف

وعليه برهان عقلي وسمعى أما العقلي فاثنان كلى وتفصيلي ، أما البرهان الكلى على أن الحق مذهب السلف فينكشف بتسليم أربعة أصول هى مسلمة عند كل فاعل

(الاول) ان أعرف الخلق بصلاح أحوال العباد بالاضافة الى حسن المعاد هو النبي صلى الله عليه وسلم فان ماينتفع به فى الآخرة أو يضر لاسبيل الى معرفته بالتجربة كما عرف الطبيب اذ لامجال للعلوم التجريبية الا بما يشاهد على سبيل التكرر ومن الذى رجع من ذلك العالم فادرك بالمشاهدة مانفع وضر وأخبر عنه ولا يدرك بقياس العقل فان العقول قاصرة عن ذلك والعقلاء باجمعهم معترفون بأن العقل لايهتدى الي مابعد الموت ولا يرشد الى وجه ضرر المعاصى ونفع الطاعات لاسيما على سبيل التفصيل والتحديد كما وردت به الشرائع بل أقروا بجملتهم ان ذلك لايدرك إلا بنور النبوة وهى قوة وراء قوة العقل يدرك بها من أمر الغيب فى الماضى والمستقبل أمور لاعلى طريق التعرف بالاسباب العقلية وهذا مما اتفق عليه الاوائل من الحكماء فضلا عن الاولياء والعلماء الراسخين القاصرين

نظرهم على الاقتباس من حضرة النبوة المقرين بقصور كل قوة سوى هذه القوة

(الاصل الثانى) : أنه صلى الله عليه وسلم أفاض الى الخلق ماأوحى اليه من صلاح العباد فى معادهم ومعاشهم وأنه ماكتم شيأ من الوحي وأخفاه وطواه عن الخلق فانه لم يبعث إلا لذلك ولذلك كان رحمة للعالمين فلم يكن متهما فيه وعرف ذلك علما ضروريا من قرائن أحواله فى حرصه على اصلاح الخلق وشغفه بارشادهم الى صلاح معاشهم ومعادهم فما ترك شيئا مما يقرب الخلق الى الجنة ورضاء الخالق الا دلهم عليه وأمرهم به وحثهم عليه ولاشيأ مما يقربهم الى النار والى سخط الله الا حذرهم منه ونهاهم عنه وذلك فى العلم والعمل جميعا

(الاصل الثالث) : ان أعرف الناس بمعانى كلامه وأحراهم بالوقوف على كنهه ودرك أسراره الذين شاهدوا الوحي والتنزيل وعاصروه وصاحبوه بل لازموه آناء الليل والنهار متشمرين لفهم معانى كلامه وتلقيه بالقبول للعمل به أولا وللنقل الي من بعدهم ثانيا وللتقرب الى الله سبحانه وتعالى بسماعه وفهمه وحفظه ونشره وهم الذين حثهم رسول الله ﷺ على السماع والفهم والحفظ والاداء فقال « نصر الله امرأ جمع مقالتى فوعاها فاداها كما سمعها » الحديث فليت شعرى أيتهم رسول الله ﷺ باخفائه وكتمانه عنهم حاشا منصب النبوة عن ذلك أو يتهم أولئك الاكابر في فهم كلامه وادراك مقاصده أو يتهمون فى اخفائه واسراره بعد الفهم أو يتهمون فى معاندته من حيث العمل ومخالفته على سبيل المكابرة مع الاعتراف بتنهيمه وتكليفه فهذه أمور لايتسع لتقديرها عقل عاقل

(الأصل الرابع) : أنهم فى طول عصرهم الى آخر أعمارهم مادعوا الخلق الى البحث والتفتيش والتفسير والتأويل والتعرض لمثل هذه الأمور بل بالغوا فى زجر من خاض فيه وسأل عنه وتكلم به على ماسنحكيه عنهم فلو كان ذلك من الدين أوكان من مدارك الأحكام وعلم الدين لأقبلوا عليه ليلا ونهارا ودعوا اليه أولادهم وأهليهم وتشمروا عن ساق الجد فى تأسيس أصوله وشرح قوانينه تشمرا أبلغ من تشمرهم فى تمهيد قواعد الفرائض والمواريث فنعلم بالقطع من

هذه الاصول أن الحق ماقالوه والصواب مارأوه لاسيما وقد أثنى عليهم رسول الله ﷺ « وقال خير الناس قرنى ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم» وقال ﷺ (ستفترق أمتى نيفا وسبعين فرقة الناجية منهم واحدة فقيل من هم ؟ فقال أهل السنة والجماعة فقيل وماأهل السنة والجماعة ؟ فقال ماأنا عليه الآن وأصحابى)

(البرهان الثانى) : وهوالتفصيلي فنقول ادعينا ان الحق هومذهب السلف وأن مذهب السلف هوتوظيف الوظائف السبع على عوام الخلق فى ظواهر الاخبار المتشابهة وقد ذكرنا برهان كل وظيفة معها فهو برهان كونه حقا فمن يخالف ليت شعرى أيخالف فى قولنا الأول أنه يجب على العامى التقديس للحق عن التشبيه ومشابهة الأجسام أو فى قولنا الثانى أنه يجب عليه التصديق والايمان بما قاله الرسول عليه السلام بالمعنى الذى أراده أوفى قولنا الثالث أنه يجب عليه الاعتراف بالعجز عن درك حقيقة تلك المعانى أوفى قولنا الرابع أنه يجب عليه السكوت عن السؤال والخوض فيماهو وراء طاقته أوفى قولنا الخامس أنه يجب عليه امساك اللسان عن تغيير الظواهر بالزيادة والنقصان والجمع والتفريق أوفى قولنا السادس أنه يجب عليه كف القلب عن التذكر فيه والفكر مع عجزه عنه وقد قيل لهم تفكروا فى الخلق ولاتفكروا فى الخالق أوفى قولنا السابع أنه يجب عليه التسليم لأهل المعرفة من الأنبياء والأولياء والعلماء الراسخين فهذه أمور بيانها برهانها ولايقدر أحد على جحدها اوانكارها ان كان من أهل التمييز فضلا عن العلماء والعقلاء فهذه هى البراهين العقلية

(النمط الثاني) : البرهان السمعي على ذلك وطريقه أن نقول الدليل على أن الحق مذهب السلف أن نقيضه بدعة والبدعة مذمومة وضلالة والخوض من جهة العوام فى التأويل والخوض بهم فيه من جهة العلماء بدعة مذمومة وكان نقيضه وهو الكف عن ذلك سنة محمودة فهنا ثلاثة أصول

(أحدها) : أن البحث والتفتيش والسؤال عن هذه الأمور بدعة

(والثانى) : أن كل بدعة فهى مذمومة

(والثالث) : أن البدعة اذا كانت مذمومة كان نقيضها وهي السنة القديمة محمودة

ولا يمكن النزاع فى شيء من هذه الاصول فاذا سلم ذلك ينتج أن الحق مذهب السلف فان قيل فبم تنكرون على من يمنع كون البدعة مذمومة أو يمنع كون البحث والتفتيش بدعة فينازع فى هذين وان لم ينازع فى الثالث لظهوره فنقول الدليل على اثبات الاصل الاول من كون البدعة مذمومة اتفاق الامة قاطبة على ذم البدعة وزجر المبتدع وتعيير من يعرف بالبدعة وهذا مفهوم على الضرورة من الشرع وذلك غير واقع فى محل الظن فذم رسول الله عليه السلام البدعة علم بالتواتر بمجموع أخبار يفيد العلم القطع جملتها وان كان الاحتمال يتطرق الى آحادها وذلك كعلمنا بشجاعة علي رضى الله عنه وسخاوة حاتم وحب رسول الله ﷺ لعائشة رضى الله عنها وما يجرى مجراه فانه علم قطعا باخبار آحاد بلغت فى الكثرة مبلغا لا يحتمل كذب ناقليها وان لم تكن آحاد تلك الأخبار متواترة وذلك مثل ماروى عن رسول الله ﷺ أنه قال . عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ وإياكم ومحدثات الأمور فان كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار . وقال ﷺ (اتبعوا ولا تبتدعوا وانما هلك من كان قبلكم لما إبتدعوا فى دينهم وتركوا سنن أنبيائهم وقالوا بآرائهم فضلوا وأضلوا . وقال عليه السلام . اذا مات صاحب بدعة فقد فتح على الاسلام فتح . وقال عليه السلام . من مشى الى صاحب بدعة ليوقره فقد أعان على هدم الاسلام . وقال عليه السلام من أعرض عن صاحب بدعة بغضا له فى الله ملأ الله قلبه أمنا وايمانا ومن انتهر صاحب بدعة رفع الله له مائة درجة ومن سلم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشر أو استقبله بما يسره فقد استخف بما أنزل على محمد ﷺ وقال ﷺ (ان الله لا يقبل لصاحب بدعة صوما ولا صلاة ولا زكاة ولا حجا ولا عمرة ولا جهادا ولا صرفا ولا عدلا ويخرج من الاسلام كما يخرج السهم من الرمية أو كما تخرج الشعرة من العجين) فهذا وأمثاله مما يجاوز حد الحصر أفاد علما ضروريا بكون البدعة مذمومة فان قيل سلمنا أن البدعة مذمومة ولكن مادليل الأصل الثاني وهو ان هذه بدعة فان البدعة عبارة عن كل محدث فلم قال الشافعى رضى الله عنه الجماعة فى التراويح بدعة وهي بدعة حسنة وخوض الفقهاء فى تفاريع الفقه ومناظرتهم فيها مع ما أبدعوه من

نقض و كسر وفساد وضع و تركيب ونحوه من فنون مجادلة والزام كل ذلك مبدع لم يؤثر عن الصحابة شيء من ذلك فدل على أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة مأثورة ولا نسلم ان هذا رافع لسنة ثابتة لكنه محدث ما خاض فيه الأولون اما لاشتغالهم بما هو أهم منه واما لسلامة القلوب فى العصر الأول عن الشكوك والترددات فاستغنوا لذلك وخاض فيه من بعدهم لمسيس الحاجه حيث حدثت الأهواء والبدع الى ابطالها وافحام منتحلها

(الجواب): أما ماذكرتموه من أن البدعة المذمومة ما رفعت سنة قديمة هو الحق وهذا بدعة رفعت سنة قديمة اذ كان سنة الصحابة المنع من الخوض فيه وزجر من سأل عنه والمبالغة فى تأديبه ومنعه بفتح باب السؤال عن هذه المسائل والخوض بالعوام فى غمرة هذه المشكلات على خلاف ما تواتر عنهم وقد صح ذلك عن الصحابة بتواتر النقل عند التابعين من نقلة الآثار وسير السلف حجة لا يتطرق اليها ريب وشك كما تواتر خوضهم فى مسائل الفرائض ومشاورتهم فى الوقائع الفقهية وحصل العلم به أيضا باخبار آحاد لا يتطرق الشك الى مجموعها كما نقل عن عمر رضى الله عنه أنه سأل سائل عن آيتين متشابهتين فعلاه بالدرة وكما روى أنه سأله سائل عن القرآن أهو مخلوق أم لا ؟ فتعجب عمر من قوله فأخذ بيده حتى جاء به الى على رضى الله عنه فقال ياأبا الحسن استمع ما يقول هذا الرجل قال وما يقول ياأمير المؤمنين ؟ فقال الرجل سألته عن القرآن أمخلوق هو أم لا ؟ فوجم لها رضى الله عنه وطأطأ رأسه ثم رفع رأسه وقال سيكون لكلام هذا نبأ فى آخر الزمان ولو وليت من أمره ما وليت لضربت عنقه وقد روى أحمد بن حنبل هذا الحديث عن أبى هريرة فهذا قول على بحضور عمر وأبى هريرة رضى الله عنهم ولم يقولا له ولا أحد ممن بلغه ذلك من الصحابة ولا عرف على رضى الله عنه فى نفسه ان هذا سؤال عن مسألة دينية وتعرف لحكم كلام الله تعالى وطالب معرفة لصفة القرآن الذى هو معجزة دالة على صدق الرسول بل هو الدليل المعرف لأحكام التكليف فلم يستوجب طالب المعرفة هذا التشديد فانظر الى فراسة على واشرافه على أن ذلك قرع لباب الفتنة وأن ذلك سينتشر فى آخر الزمان الذى هو موسم الفتن

ومطيتها بوعد رسول الله ﷺ وانظر الى تشديده وقوله ولو وليت لضربت عنقه فمثل أولئك السادة الأكابر الذين شاهدوا الوحي والتنزيل واطلعوا على أسرار الدين وحقائقه وقد قال ﷺ فى أحدهما (لولم أبعث لبعث عمر) وقال فى الثانى (أنا مدينة العلم وعلى بابها) يزجرون السائل عن مثل هذا السؤال ثم يزعم من بعدهم من المشغوفين بالكلام والمجادلة وممن لو أنفق مثل أحد ذهبا ما بلغ مسد أحدهم ولا نصيفه ان الحق والصواب قبول هذا السؤال والخوض في الجواب وفتح هذا الباب ثم يعتقد فيه أنه محق وفى عمر وعلى أنهما مبطلان هيهات ما أبعد عن التحصيل وما أخلى عن الدين من قاس الملائكة بالحدادين ويرجح المجادلين على الأئمة الراشدين والسلف فاذا قد عرف على القطع أن هذه بدعة مخالفة لسنة السلف لا كخوض الفقهاء فى التفاريع والتفاصيل فانه ما نقل عنهم زجر عن الخوض فيه بل امعانهم فى الخوض وأما ما أبدع من فنون المجادلات فهى بدعة مذمومة عند أهل التحصيل ذكرنا وجه ذمها فى كتاب قواعد العقائد من كتب الاحياء وأما مناظراتهم ان كان القصد منها التعاون على البحث عن مأخذ الشرع ومدرك الاحكام فهى سنة السلف ولقد كانوا يتشاورون ويتناظرون فى المسائل الفقهية كما نقل فى مسألة الجد وميراث الأم مع الزوج والأب ومسائل سواها نعم ان ابدعوا ألفاظا وعبارات للتنبيه على مقاصدهم الصحيحة فلا حرج فى العبارات بل هى مباحة لمن يستعيرها ويستعملها وان كان مقصدهم المذموم من النظر لافحام دون الاعلام والالزام دون الاستعلام فذلك بدعة على خلاف السنة المأثورة.

الباب الثالث فى فصول متفرقة وأبواب نافعة فى هذا الفن

(فصـــل) : ان قال قائل ما الذي دعا رسول الله ﷺ الى إطلاق هذه الالفاظ الموهمة مع الاستغناء عنها أكان لا يدرى أنه يوهم التشبيه ويغلط الخلق ويسوقهم الى اعتقاد الباطل في ذات الله تعالى وصفاته وحاشا منصب النبوة أن يخفى عليه ذلك أو عرف لكن لم يبال بجهل الجهال وضلالة الضلال وهذا أبعد وأشنع لأنه بعث شارحا لامبهما ملبسا ملغزا وهذا اشكال له وقع فى القلوب حتى جر بعض الخلق الى سوء الاعتقاد فيه فقالوا لو كان نبيا لعرف الله ولو عرفه لما وصفه

بمايستحيل عليه فى ذاته وصفاته ومالت طائفة أخرى الى اعتقاد الظواهر وقالوا لو لم يكن حقا لما ذكره كذلك مطلقا ولعدل عنها الى غيرها أو قرنها بما يزيل الابهام عنها فما سبيل حل هذا الاشكال العظيم

(الجواب) : ان هذا الأشكال منحل عند أهل البصيرة وبيانه ان هذه الكلمات ماجمعها رسول الله ﷺ دفعة واحدة وما ذكرها وانما جمعها المشبهة وقد بينا ان لجمعها من التأثير فى الابهام والتلبيس على الافهام ماليس لآحادها المفرقه وانما هى كلمات لهج بها فى جميع عمره فى أوقات متباعدة واذا اقتصر منها على ما فى القرآن والاخبار المتواترة رجعت الى كلمات يسيرة معدودة وان أضيفت اليها الأخبار الصحيحة فهي أيضا قليلة وانما كثرت الروايات الشاذة الضعيفه التى لا يجوز التعويل عليها ثم ماتواتر منها ان صح نقلها عن العدول فهى آحاد كلمات وما ذكر ﷺ كلمة منها الامع قرائن واشارات يزول معها ابهام التشبيه وقد أدركها الحاضرون المشاهدون فاذا نقل الألفاظ مجردة عن تلك القرائن ظهر الابهام وأعظم القرائن في زوال الابهام المعرفة السابقة بتقديس الله تعالى عن قبول هذه الظواهر ومن سبقت معرفته بذلك كانت تلك المعرفة ذخيرة له راسخة في نفسه مقارنة لكل ما يسمع فينمحق معه الابهام انمحاقا لايشك فيه ويعرف هذا بأمثلة

(الأول) : أنه ﷺ سمى الكعبة بيت الله تعالى واطلاق هذا يوهم عند الصبيان وعند من تقرب درجتهم منهم أن الكعبة وطنه ومثواه لكن العوام الذين اعتقدوا أنه فى السماء وان استقراره على العرش ينمحق فى حقهم هذا الابهام على وجه لايشكون فيه فلو قيل لهم ما الذى دعا رسول الله ﷺ الى اطلاق هذا اللفظ الموهم المخيل الى السامع أن الكعبة مسكنه لبادروا بأجمعهم وقال هذا انما يوهم فى حق الصبيان والحمقى أما من تكرر على سمعه أن الله مستقر على عرشه فلا يشك عند سماع هذا اللفظ أنه ليس المراد به ان البيت مسكنه ومأواه بل يعلم عن البديهة أن المراد بهذه الاضافة تشريف البيت أو معنى سواه غير ماوضع له لفظ البيت المضاف الى ربه وساكنه أليس كان اعتقاده أنه على العرش قرينة إفادته علما قطعيا بأنه ما أريد بكون الكعبة بيته أنه مأواه وأن هذه إنما يوهم فى حق من لم يسبق الى هذه العقيدة

فكذلك رسول الله ﷺ خاطب بهذه الألفاظ جماعة سبقوا الى علم التقديس ونفى التشبيه وأنه منزه عن الجسمية وعوارضها وكان ذلك قرينة قطعية مزيلة للايهام لا يبقى معه شك وان جاز أن يبقى لبعضهم تردد فى تأويله وتعيين المراد به من جملة ما يحتمله اللفظ ويليق بجلال الله تعالى

(المثال الثانى) : اذا جرى لفقيه فى كلامه لفظ الصورة بين يدى الصبى أو العامى فقال صورة هذه المسألة كذا وصورة الواقعة كذا ولقد صورت للمسألة صورة فى غاية الحسن ربما توهم الصبى أو العامى الذى لا يفهم معنى المسألة أن المسألة شىء له صورة وفى تلك الصورة أنف وفم وعين على ما عرفه واشتهر عنده أما من عرف حقيقة المسألة وانها عبارة عن علوم مرتبة ترتيبا مخصوصا فهل يتصور أن يفهم عينا وأنفا وفما كصورة الاجسام هيهات بل يكفيه معرفته بأن المسألة منزهة عن الجسمية وعوارضها فكذلك معرفة نفى الجسمية عن الاله وتقدسه عنها تكون قرينة فى قلب كل مستمع مفهمة لمعنى الصورة فى قوله خلق الله آدم على صورته ويتعجب العارف بتقديسه عن الجسمية ممن يتوهم لله تعالى الصورة الجسمية كما يتعجب ممن يتوهم للمسئلة صورة جسمانية

(المثال الثالث) : اذا قال القائل بين يدى الصبى بغداد فى يد الخليفة ربما يتوهم أن بغداد بين أصابعه وأنه قد احتوى عليها براحته كما يحتوى على حجرة ومدره وكذلك كل عامى لم يفهم المراد بلفظ بغداد أما من علم أن بغداد عبارة عن بلدة كبيرة هل يتصور أن يخطر له ذلك أو يتوهم وهل يتصور أن يعترض على قائله ويقول له لماذا قلت بغداد فى يد الخليفة وهذا يوهم خلاف الحق ويفضى الى الجهل حتى يعتقد أن بغداد بين أصابعه بل يقال له ياسليم القلب هذا انما يوهم الجهل عند من لا يعرف حقيقة بغداد فاما من علمه فبالضرورة يعلم أنه ما أريد بهذه اليد العضو المشتمل على الكف والاصابع بل معنى آخر ولا يحتاج فى فهمه الى قرينة سوى هذه المعرفة فكذلك جميع الالفاظ الموهمة في الاخبار يكفى فى دفع ايهامها قرينة واحدة وهي معرفة الله وأنه ليس بجسم وليس من جنس الاجسام وهذا مما افتتح رسول الله ﷺ ببيانه فى أول بعثته قبل النطق بهذه الالفاظ

(المثال الرابع) : قال رسول الله ﷺ فى نسائه « أطولكن يدا أسرعكن لحاقا بى » فكان بعض نسوته يتعرف الطول بالمساحة ووضع اليد على اليد حتى ذكر لهن أنه أراد بذلك السماحة فى الجود دون الطول للعضو وكان رسول الله ﷺ ذكر هذه اللفظة مع قرينة أفهم بها ارادة الجود بالتعبير بطول اليد عنه فلما نقل اللفظ مجردا عن قرينته حصل الايهام فهل كان لأحد أن يعترض على رسول الله ﷺ فى اطلاقه لفظا جهل بعضهم معناه انما ذلك لانه أطلق اطلاقا مفهما فى حق الحاضرين مقرونا مثلا بذكر السخاوة والناقل قد ينقل اللفظ كما سمعه ولا ينقل القرينة أو كان بحيث لا يمكن نقلها أو ظن أنه لا حاجة الى نقلها وان من يسمع يفهمه كما فهمه هو لما سمعه فربما لا يشعران فهمه انما كان بسبب القرينة فلذلك يقتصر على نقل اللفظ فبمثل هذه الاسباب بقيت الالفاظ مجردة عن قرائنها فقصرت عن التفهيم مع ان قرينة معرفة التقديس بمجردها كافية فى نفى الايهام وان كانت ربما لا تكفى فى تعيين المراد به فهذه الدقائق لابد من التنبه لها

(المثال الخامس) اذا قال القائل بين يدى الصبى ومن يقرب منه درجة ممن لم يمارس الاحوال ولا عرف العادات فى المجالسات فلان دخل مجمعا وجلس فوق فلان ربما يتوهم السامع الجاهل الغبى أنه جلس على رأسه أو على مكان فوق رأسه ومن عرف العادات وعلم ان ماهو أقرب الى الصدر أعلى فى الرتبه وأن الفوق عبارة عن العلو يفهم منه أنه جلس بجنبه لا فوق رأسه لكن جلس أقرب الى الصدر فالاعتراض على من خاطب بهذا الكلام أهل المعرفة بالعادات من حيث أنه يجهله الصبيان أو الأغبياء اعتراض باطل لا أصل له وأمثلة ذلك كثيرة فقد فهمت على القطع بهذه الامثلة أن هذه الألفاظ الصريحة انقلبت مفهوماتها عن أوضاعها الصريحة بمجرد قرينة ورجعت تلك القرائن الى معارف سابقة ومقترنة فكذلك هذه الظواهر الموهمة انقلبت عن الايهام بسبب تلك القرائن الكثيرة التى بعضها هى المعارف والواحدة منها معرفتهم أنهم لم يؤمروا بعبادة الاصنام وأن من عبد جسما فقد عبد صنما كان الجسم صغيرا أو كبيرا قبيحا أو جميلا سافلا أو عاليا على الأرض أو على العرش وكان نفى الجسميه ونفى لوازمها معلوما لكافتهم على

القطع باعلام رسول الله ﷺ المبالغة فى التنزيه بقوله ليس كمثله شيء وسورة الاخلاص وقوله (ولاتجعلوا لله أندادا) وبالفاظ كثيرة لاحصر لها مع قرائن قاطعة لايمكن حكايتها وعلم ذلك علما لاريب فيه وكان ذلك كافيا فى تعريفهم استحالة يدهى عضو مركب من لحم وعظم وكذا فى سائر الظواهر لأنها لاتدل إلا على الجسمية وعوارضها لو أطلق على جسم واذا أطلق على غير الجسم علم ضرورة انه ماأريد به ظاهره بل معنى آخر مما يجوز على الله تعالى ربما يتعين ذلك المعنى وربما لايتعين فهذا مما يزيل الاشكال فان قيل فلم لم يذكرها بألفاظ ناصة عليها بحيث لايوهم ظاهرها جهلا ولا فى حق العامى والصبى قلنا لأنه انما كلم الناس بلغة العرب وليس فى لغة العرب ألفاظ ناصة على تلك المعاني فكيف يكون فى اللغة لها نصوص وواضع اللغة لم يفهم تلك المعانى فكيف وضع لها النصوص بل هى معان أدركت بنور النبوة خاصة أو بنور العقل بعد طول البحث وذلك أيضا فى بعض تلك الأمور لافى كلها فلما لم يكن لها عبارات موضوعة كان استعارة الالفاظ من موضوعات اللغة ضرورة كل ناطق بتلك اللغة كما انا لانستغنى عن أن نقول صورة هذه المسئلة كذا وهى تخالف صورة المسئلة الأخري وهى مستعارة من الصورة الجسمانية لكن واضع اللغة لما لم يضع لهيئة المسألة وخصوص ترتيبها اسما نصا اما لأنه لم يفهم المسئلة أو فهم لكن لم تحضره أو حضرته لكن لم يضع لها نصا خاصا اعتمادا على امكان الاستعارة أو لانه علم أنه عاجز عن أن يضع لكل معنى لفظا خاصا ناصا لأن المعانى غير متناهية العدد والموضوعات بالقطع يجب أن تتناهى فتبقى معان لانهاية لها يجب أن يستعار اسمها من الموضع فاكتفى بوضع البعض وسائر اللغات أشد قصورا من لغة العرب فهذا وأمثاله من الضرورة يدعو الى الاستعارة لمن يتكلم بلغة قوم اذ لايمكنه أن يخرج عن لغتهم كيف ونحن نجوز الاستعارة حيث لاضرورة اعتمادا على القرائن فانا لانفرق بين أن يقول القائل جلس زيد فوق عمرو وبين أن يقول جلس أقرب منه الى الصدر وأن بغداد فى ولاية الخليفة أو فى يده اذا كان الكلام مع العقلاء وليس فى الامكان حفظ الألفاظ عن أفهام الصبيان والجهال

فالاشتغال بالاحتراز عن ذلك ركاكة فى الكلام وسخافة فى العقل وثقل فى اللفظ فان قيل فلم لم يكشف الغطاء عن المراد باطلاق لفظ الاله ولم يقل انه موجود ليس بجسم ولا جوهر ولا عرض ولا هو داخل العالم ولا خارجه ولا متصل ولا منفصل ولا هو فى مكان ولا هو فى جهة بل الجهات كلها خالية عنه فهذا هو الحق عند قوم والافصاح عنه كذلك كما فصح عنه المتكلمون ممكن ولم يكن فى عبارته ﷺ قصور ولا فى رغبته فى كشفه الحق فتور ولا فى معرفته نقصان قلنا من رأى هذا حقيقة الحق اعتذر بان هذا لو ذكره لنفر الناس عن قبوله ولبادروا بالانكار وقالوا هذا عين المحال ووقعوا فى التعطيل ولا خير فى المبالغة فى تنزيه ينتج التعطيل فى حق الكافة إلا الاقلين وقد بعث رسول الله ﷺ داعيا للخلق الى سعادة الآخرة رحمة للعالمين كيف ينطق بما فيه هلاك الاكثرين بل أمر أن لا يكلم الناس الا على قدر عقولهم وقال ﷺ (من حدث الناس بحديث لا يفهمونه كان فتنة على بعضهم) أو لفظ هذا معناه فان قيل ان كان فى المبالغة فى التنزيه خوف التعطيل بالاضافة الى البعض ففى استعماله الالفاظ المهمة خوف التشبيه بالإضافة الى البعض قلنا بينهما فرق من وجهين أحدهما أن ذلك يدعوا الى التعطيل فى حق الاكثرين وهذا يعود الى التشبيه فى حق الاقلين وأهون الضررين أولى بالإحتمال وأعم الضررين أولى بالاجتناب والثانى ان علاج وهم التشبيه أسهل من علاج التعطيل اذ يكفى ان يقال مع هذه الظواهر (ليس كمثله شىء) وانه ليس بجسم ولا مثل الاجسام واما اثبات موجود فى الاعتقاد على ما ذكرناه من المبالغة فى التنزيه شديد جدا بل لا يقبله واحد من الالف لاسيما الامة الإمية العربية فان قيل فعجز الناس عن الفهم هل يمهد عذر الانبياء فى أن يثبتوا فى عقائدهم أمورا على خلاف ماهي عليها ليثبت فى اعتقادهم أصل الالهية حتى توهموا عندهم مثلا ان الله مستقر على العرش وانه فى السماء وانه فوقهم فوقية المكان قلنا معاذ الله ان نظن ذلك أو يتوهم بنبي صادق ان يصف الله بغير ماهو متصف به وان يلقى ذلك فى اعتقاد الخلق فانما تأثير قصور الخلق فى أن يذكر لهم مايطيقون فهمه ومالا يفهمونه فيكف عنه فلا يعرفهم بل يمسك عنهم وانما ينطق به مع من يطيقه ويفهمه ويحسن فى ذلك علاج عجز

الخلق وقصورهم ولا ضرورة فى تفهيمهم خلاف الحق قصدا لاسيما فى صفات الله نعم به ضرورة في استعمال الالفاظ مستعارة وبما يغلط الاغبياء فى فهمها وذلك لقصور اللغات وضرورة المحاورات فأما تفهيمهم خلاف الحق قصدا الى التجهيل فمحال سواء فرض فيه مصلحة أو لم تفرض فان قيل قد جهل أهل التشبيه جهلا يستند الى ألفاظه وعلم أن ألفاظه فى الظواهر تفضى الى جهلهم فمهما جاء بلفظ مجمل ملبس فرضى به لم يفترق الحال بين أن يكون مجردا قصده الى التجهيل وبين أن لايقصد التجهيل مهما حصل التجهيل وهو عالم به وراض قلنا لا نسلم ان جهل أهل التشبيه حصل بالفاظه بل بتقصيرهم فى كسب معرفة التقديس وتقديمه على النظر فى الألفاظ ولو حصلوا تلك المعرفة أولا وقدموها لما جهلوها كما أن من حصل علم التقديس لم يجهل عند سماعه صورة المسئلة وانما الواجب عليهم تحصيل هذا العلم ثم مراجعة العلماء اذا شكوا فى ذلك ثم كف النفس عن التأويل والزامها التقديس اذا رسم لهم العلماء فاذا لم يفعلوا جهلوا وعلم الشارع بان الناس فى طباعهم الكسل والتقصير والفضول بالخوض فيما ليس من شأنهم ليس رضا بذلك ولا سعيا فى تحصيل الجهل لكنه رضا بقضاء الله وقدره فى قسمته حيث قال (وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) وقال (ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولوشاء ربك لآمن من فى الارض كلهم جميعا أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين * وما كان لنفس أن تؤمن الا باذن الله * ولا يزالون مختلفين الا من رحم ربك ولذلك خلقهم) فهذا هو القهر الالهى فى فطرة الخلق ولاقدرة للأنبياء فى تغيير سنته التى لا تبديل لها

(فصل) : لعلك تقول الكف عن السؤال والامساك عن الجواب من أين يغنى وقد شاع فى البلاد هذه الاختلافات وظهرت التعصبات فكيف سبيل الجواب اذا سئل عن هذه المسائل

(قلنا) : الجواب ما قاله مالك رضى الله عنه فى الاستواء اذ قال الاستواء معلوم الحديث فيذكر هذا الجواب فى كل مسئلة يسأل عنها العوام لينحسم سبيل الفتنة فان قيل فاذا سئل عن الفوق واليد والاصبع فبم يجيب ؟

(قلنا) : الجواب : أن يقال الحق فيه ماقاله الرسول ﷺ وقاله الله تعالى وقد صدق حيث قال (الرحمن على العرش استوى) فيعلم قطعا أنه ما أراد الجلوس والاستقرار الذى هو صفة الاجسام ولا تدرى ماالذى أراده ولم نكلف معرفته وصدق حيث قال (وهو القاهر فوق عباده) وفوقية المكان محال فانه كان قبل المكان فهو الآن كما كان وما أراده فلسنا نعرفه وليس علينا ولا عليك أيها السائل معرفته فكذلك نقول ولايجوز اثبات اليد والاصبع ومطلقا بل يجوز النطق بما نطق به رسول الله ﷺ على الوجه الذى نطق به من غير زيادة ونقصان وجمع وتفريق وتأويل وتفصيل كما سبق فنقول صدق حيث قال (خمر طينة آدم بيده) وحيث قال (قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن) فنؤمن بذلك ولانزيد ولاننقص وننقله كما روى ونقطع بنفى العضو المركب من اللحم والعصب واذا قيل القرآن قديم أو مخلوق قلنا هو غير مخلوق لقوله ﷺ (القرآن كلام الله غير مخلوق) فان قال الحروف قديمة أم لا؟ قلنا الجواب فى هذه المسئلة لم يذكرها الصحابة فالخوض فيها بدعة فلا تسألوا عنها فان ابتلى الانسان بهم في بلدة غلبت فيها الحشوية وكفروا من لايقول بقدم الحروف فيقول المضطر إلى الجواب ان عنيت بالحروف نفس القرآن فالقرآن قديم وان أردت بها غير القرآن وصفات الله تعالى فما سوى الله وصفاته محدث ولا يزيد عليه لأن تفهيم العوام حقيقة هذه المسئلة عسر جدا فان قالوا قد قال النبى ﷺ (من قرأ حرفا من القرآن فله كذا) فاثبت الحروف للقرآن ووصف القرآن بأنه غير مخلوق فلزم منه ان الحروف قديمة قلنا لانزيد على ما قاله الرسول ﷺ وهو أن القرآن غير مخلوق وهذه مسئلة وان كان للقرآن حروف هى مسئلة أخرى وأما أن الحروف قديمة فهى مسئلة ثالثة ونزد عليه فلا نقول به ولانزيد على ماقاله الرسول ﷺ فان زعموا أنه يلزم من المسئلتين السابقتين هذه المسئلة قلنا هذا قياس وتفريع وقد بينا أن لاسبيل إلى القياس والتفريع بل يجب الاقتصار على ماورد من غير تفريق وكذلك اذا قالوا عربية القرآن قديمة لأنه قال القرآن قديم وقال (أنزلناه قرآنا عربيا) فالعربى قديم فيقول أما أن القرآن عربى فحق إذ نطق به القرآن وأما أن القرآن قديم فحق إذ نطق به الرسول ﷺ وأما ان عربية

القرآن قديمة فهى مسئلة ثالثة لم يرد فيها أنها قديمة فلا يلزم القول بها فعلى هذا الوجه يلجم العوام والحشوية عن التصرف فيه ونزمهم عن القياس والقول باللوازم بل نزيد في التضييق على هذا ونقول اذا قال القرآن كلام الله غير مخلوق فهذا لا يرخص فى أن يقول القرآن قديم مالم يرد لفظ القديم اذ فرق بين غير المخلوق والقديم اذ يقال كلام فلان غير مخلوق أي غير موضوع وقد يقال المخلوق بمعنى المختلق فلفظ غير مخلوق يتطرق اليه هذا ولا يتطرق إلى لفظ القديم فبينهما فرق ونحن نعتقد قدم القرآن لا بمجرد هذا اللفظ فان هذا اللفظ لا ينبغى أن يحرف ويبدل ويغير ويصرف بل يلزم أن يعتقد أنه حق بالمعنى الذى اراده وكل من وصف القرآن بأنه مخلوق من غير نقل نص فيه مقصود فقد أبدع وزاد ومال عن مذهب السلف وحاد

(فصل) : فان قيل من المسائل المعروفة قولهم ان الايمان قديم فاذا سئلنا عنه فبم نجيب قلنا أن ملكنا زمام الأمر واستولينا على السائل منعناه عن هذا الكلام السخيف الذى لاجدوى له وقلنا أن هذا بدعة وإن كنا مغلوبين فى بلادهم فنجيب ونقول ما الذى أردت بالايمان؟ ان أردت شيئا من معارف الخلق وصفاتهم فجميع صفات الخلق مخلوقة وان أردت به شيئاً من القرآن أو من صفات الله تعالى فجميع صفات الله تعالى قديمة وإن أردت ماليس صفة للخلق ولا صفة الخالق فهو غير مفهوم ولا متصور وما لا يفهم ولا يتصور ذاته كيف يفهم حكمه فى القدم والحدوث والأصل زجر السائل والسكوت عن الجواب هذا صفو مقصود مذهب السلف ولا عدول عنه الا بضرورة وسبيل المضطر ماذكرنا فان وجدنا ذكيا مستفهما لفهم الحقائق كشفنا الغطاء عن المسألة وخلصناه عن الاشكال فى القرآن وقلنا

(اعلم) : أن كل شىء فله في الوجود أربع مراتب، وجود فى الاعيان ، ووجود فى الأذهان ، ووجود في اللسان ، ووجود فى البياض المكتوب عليه كالنار مثلا فان لها وجود فى التنور ووجودا فى الخيال والذهن وأعنى بهذا الوجود العلم بنفس النار وحقيقتها ولها وجود في اللسان وهى الكلمة الدالة عليه أعنى لفظ النار ولها وجود فى البياض المكتوب عليه بالرقوم والاحراق صفة خاصة للنار

كالقدم للقرآن ولكلام الله تعالى والمحرق من هذه الجملة الذى فى التنور دون الذى فى الأذهان وفى اللسان وعلى البياض اذ لو كان المحرق فى البياض أو اللسان لاحترق ولكن لو قيل لنا النار محرقة قلنا نعم فان قيل لنا كلمة النار محرقة قلنا لا فان قيل حروف النار محرقة قلنا لا فان قيل مرقوم هذه الحروف على البياض محرقة قلنا لا، فان قيل المذكور بكلمة النار والمكتوب بكلمة النار محرق قلنا نعم لأن المذكور والمكتوب بهذه الكلمة مافى التنور وما فى التنور محرق فكذلك القدم وصف كلام الله تعالى كالاحراق وصف النار وما يطلق عليه اسم القرآن وجوده على أربع مراتب أولها وهى الأصل وجوده قائما بذات الله تعالى يضاهى وجود النار فى التنور (ولله المثل الأعلى) ولكن لا بد من هذه الأمثلة فى تفهيم العجزة والقدم وصف خاص لهذا الوجود والثانية وجوده العلمى فى أذهاننا عند التعلم قبل أن ننطق بلساننا ثم وجوده فى لساننا بتقطيع أصواتنا ثم وجوده فى الأوراق بالكتب فاذا سألنا عما فى أذهاننا من علم القرآن قبل النطق به قلنا علمنا صفتنا وهى مخلوقة لكن المعلوم به قديم كما ان علمنا بالنار وثبوت صورتها فى خيالنا غير محرق لكن المعلوم به محرق وان سألنا عن صوتنا وحركة لساننا ونطقنا قلنا ذلك صفة لساننا فلساننا حادث وصفته توجد بعده وما هو بعد الحادث حادث بالقطع لكن منطوقنا ومذكورنا ومقروءنا بهذه الأصوات الحادثة قديم كما أن ذكرنا حروف النار بلساننا كان المذكور بهذه الحروف محرقا وأصواتنا وتقطيع أصواتنا غير محرق الا أن يقول قائل حروف النار عبارة عن نفس النار قلنا ان كان كذلك فحروف النار محرقة وحروف القرآن ان كان عبارة عن نفس المقروء فهى قديمة وكذلك المخطوط برقوم النار والمكتوب به محرق لأن المكتوب هو نفس النار اما لرقم الذى هو صورة النار غير محرق لأن فى الأوراق من غير احراق واحتراق فهذه أربع درجات فى الوجود تشتبه على العوام ولا يمكنهم ادراك تفاصيلها وخاصة كل واحد منهن فلذلك لا نخوض بهم فيها لا لجهلنا بحقيقة هذه الأمور وكنه تفاصيلها أن النار من حيث أنها فى التنور توصف بأنها محرقة وخامدة ومشتعلة ومن حيث أنها فى اللسان يوصف بأنه عجمى وتركى وعربى وكثير الحروف وقليله

وما فى التنور لاينقسم الى العجمى والتركى والعربى وما فى اللسان لا يوصف بالخمود والاشتعال واذا كان مكتوبا على البياض يوصف بأنه أحمر وأخضر وأسود وأنه بقلم المحقق أو الثلث والرقاع أو قلم النسخ وهو فى اللسان لا يمكن أن يوصف بذلك واسم النار يطلق على ما فى التنور وما فى القلب وما فى اللسان وما على القرطاس لكن باشتراك الاسم فأطلق على ما فى التنور حقيقة وعلى ما فى الذهن من العلم لا بالحقيقة لكن بمعنى أنه صورة محاكية للنار الحقيقى كما أن ما يرى فى المرآة يسمى انسانا ونارا لا بالحقيقة ولكن بمعنى أنها صورة محاكية للنار الحقيقي والانسان وما فى اللسان من الكلمة يسمى باسمه بمعنى ثالث وهو أنه دلالة دالة على ما فى الذهن وهذا يختلف بالاصطلاحات والأول والثانى لا اختلاف فيهما وما فى القرطاس يسمى نارا بمعنى رابع وهو أنها رقوم تدل بالاصطلاح على ما فى اللسان ومهما فهم اشتراك اسم القرآن والنار وكل شيء من هذه الأمور الأربعة فاذا ورد فى الخبر أن القرآن فى قلب لعبد وأنه فى المصحف وأنه فى لسان القارىء وأنه صفة ذات الله صدق بالجميع وفهم معنى الجميع ولم يتناقض عند الأذكياء وصدق بالجميع مع الاحاطة بحقيقة المراد وهذه أمور جلية دقيقة لا أجلى منها عند الفطن الذكى ولا أدق وأغمض منها عند البليد الغبي فحق البليد أن يمنع من الخوض فيها ويقال له قل القرآن غير مخلوق واسكت ولا تزد عليه ولا تنقص ولا تفتش عنه ولا تبحث وأما الذكى فيروح عن غمه هذا الاشكال فى لحظة ويوصى بأن لا يحدث البليد بشىء لا يكلفه ما ليس فى طاقته وهكذا جميع موضع الاشكالات فى الظواهر فيها حقائق جلية لأرباب البصائر ملتبسة على العميان من العوام فلا ينبغى أن يظن بأكابر السلف عجزهم عن معرفة هذه الحقيقة وان لم يحرروا ألفاظها تحرير صنعة ولكنهم عرفوه وعرفوا عجز العوام فسكتوا عنهم وأسكتوهم وذلك عين الحق والصواب ولا أعنى بأكابر السلف الأكابر من حيث الجاه والاشتهار ولكن من حيث الغوص على المعانى والاطلاع على الأسرار وعند هذا ربما انقلب الأمر فى حق العوام واعتقدوا فى الاشهر أنه الأكبر وذلك سبب آخر من أسباب الضلال

(فصل): فان قال قائل العامى إذا منع من البحث والنظر لم يعرف الدليل ومن لم

يعرف الدليل كان جاهلا بالمدلول وقد أمر الله تعالى كافة عباده بمعرفته أي بالايمان به والتصديق بوجوده أولا وبتقديسه عن سمات الحوادث ومشابهته غيره ثانيا وبوحدانيته ثالثا وبصفاته من العلم والقدرة ونفوذ المشيئة وغيرها رابعا هذه الامور ليست ضرورية فهى اذا مطلوبة وكل علم مطلوب فلا سبيل الى اقتناصه وتحصيله إلا بشبكة الأدلة والنظر فى الأدلة والتفطن لوجه دلالتها على المطلوب وكيفية انتاجها وذلك لايتم الا بمعرفة شروط البراهين وكيفية ترتيب المقدمات واستنتاج النتائج وينجر ذلك شيئا فشيئا الى تمام علم البحث واستيفاء علم الكلام الى آخر النظر فى المعقولات وكذلك يجب على العامى أن يصدق الرسول ﷺ فى كل ماجاء به وصدقه ليس بضرورى بل هو بشر كسائر الخلق فلابد من دليل يميزه عن غيره ممن تحدى بالنبوة كاذبا ولا يمكن ذلك الا بالنظر فى المعجزة ومعرفة حقيقة المعجزة وشروطها الى آخر النظر في النبوات وهو لب علم الكلام

(قلنا) : الواجب على الخلق الايمان بهذه الامور والايمان عبارة عن تصديق جازم لاتردد فيه ولا يشعر صاحبه بامكان وقوع الخطأ فيه وهذا التصديق الجازم يحصل على ست مراتب

(الأولى) : وهى قصاها مايحصل بالبرهان المستقصى المستوفى شروطه المحرر أصوله ومقدماته درجة درجة وكلمة كلمة حتى لايبقى مجال احتمال وتمكن التباس وذلك هو الغاية القصوى وربما يتفق ذلك فى كل عصر لواحد أو اثنين ممن ينتهى الى تلك الرتبة وقد يخلوا العصر عنه ولو كانت النجاة مقصورة على مثل تلك المعرفة لقلت النجاة وقل الناجون

(الثانية) : أن يحصل بالادلة الوهمية الكلامية المبنية على أمور مسلمة مصدق بها لاشتهارها بين أكابر العلماء وشناعة انكارها ونفرة النفوس عن ابداء المراء فيها وهذا الجنس أيضا يفيد في بعض الأمور وفى حق بعض الناس تصديقا جازما بحيث لايشعر صاحبه بامكان خلافه أصلا

(الثالثة) : أن يحصل التصديق بالادلة الخطابية أعنى القدوة التى جرت العادة باستعمالها فى المحاورات والمخاطبات الجارية فى العادات وذلك يفيد فى حق

الاكثرين تصديقا ببادى الرأى وسابق الفهم إن لم يكن الباطن مشحونا بالتعصب وبرسوخ اعتقاد على خلاف مقتضى الدليل ولم يكن المستمع مشغوفا بتكلف المماراة والتشكك ومتنجعا بتحديق المجادلين فى العقائد وأكثر أدلة القرآن من هذا الجنس فمن الدليل الظاهر المفيد للتصديق قولهم لاينتظم تدبير المنزل بمدبرين (فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) فكل قلب باق على الفطرة غير مشوش بمارة المجادلين يسبق من هذا الدليل الى فهمه تصديق جازم بوحدانية الخالق لكن لو شوشه مجادل وقال لم يبعد أن يكون العالم بين إلهين يتوافقان على التدبير ولا يختلفان فاسماعه هذا القدر يشوش عليه تصديقه ثم ربما يعسر سل هذا السؤال ودفعه فى حق بعض الافهام القاصرة فيستولى الشك ويتعذر الرفع وكذلك من الجلى أن من قدر على الخلق فهو على الاعادة أقدر وكما قال (قل يحييها الذى أنشأها أول مرة) فهذا لايسمعه أحد من العوام ذكى أو غبى الا ويبادر الى التصديق ويقول نعم ليست الاعادة بأعسر من الابتداء بل هى أهون ويمكن أن يشوش عليه بسؤال ربما يعسر عليه فهم جوابه والدليل المستوفى والذى يفيد التصديق بعد تمام الاسئلة وجوابها بحيث لايبقى للسؤال مجال والتصديق يحصل قبل ذلك

(الرابعة) : التصديق لمجرد السماع ممن حسن فيه الاعتقاد بسبب كثرة ثناء الخلق عليه فان من حسن اعتقاده فى أبيه وأستاذه أو فى رجل من الأفاضل المشهورين قد يخبره عن شىء كموت شخص أو قدوم غائب أو غيره فيسبق اليه اعتقاد جازم وتصديق بما أخبر عنه بحيث لايبقى لغيره مجال فى قلبه ومستنده حسن اعتقاده فيه فالمجرب بالصدق والورع والتقوى مثل الصديق رضى الله عنه اذا قال قال رسول الله ﷺ كذا فكم من مصدق به جزما وقابل له قبولا مطلقا لامستند لقوله الا حسن اعتقاده فيه فمثله اذا لقن العامى اعتقادا وقال له اعلم ان خالق العالم واحد وانه عالم قادر وأنه بعث محمدا ﷺ رسولا بادر الى التصديق ولم يمازجه ريب ولا شك فى قوله وكذلك اعتقاد الصبيان فى آبائهم ومعلميهم فلا جرم يسمعون الاعتقادات ويصدقون بها ويستمرون عليها من غير حاجة الى دليل وحجة

(الرتبة الخامسة) : التصديق به الذى يسبق اليه القلب عندسماع الشيء مع قرائن أحوال لا تفيد القطع عند المحقق ولكن يلقى فى قلب العوام اعتقادا جازما كما اذا سمع بالتواترمرض رئيس البلد ثم ارتفع صراخ وعويل من داره ثم يسمع من أحد غلمانه أنه قد مات اعتقد العامى جزما أنه مات وبنى عليه تدبيره ولا يخطر بباله أن الغلام ربما قال ذلك عن أرجاف سمعه وأن الصراخ والعويل لعله عن غشية أو شدة مرض أو سبب آخر لكن هذه خواطر بعيدة لا تخطر للعوام فتنطبع فى قلوبهم الاعتقادات الجازمة وكم من اعرابى نظر الى أسارير وجه رسول الله ﷺ والى حسن كلامه ولطف شمائله وأخلاقه فآمن به وصدقه جزما لم يخالجه ريب من غير أن يطالبه بمعجزة يقيمها ويذكر وجه دلالتها

(الرتبة السادسة) : أن يسمع القول فيناسب طبعه وأخلاقه فيبادر الى التصديق لمجرد موافقته لطبعه لا من حسن اعتقاد فى قائله ولا من قرينة تشهد له لكن لمناسبة ما فى طباعه فالحريص على موت عدوه وقتله وعزله يتصدق جميع ذلك بأدني ارجاف ويستمر على اعتقاده جازما ولو أخبر بذلك فى حق صديقه أو بشيء يخالف شهوته وهواه توقف فيه أو أباه كل الاباء وهذه أضعف التصديقات وأدنى الدرجات لان ماقبله استند الى دليل ما وان كان ضعيفا من قرينة أوحسن اعتقاد فى المخبر أو نوع من ذلك وهى أمارات يظنها العامى أدلة فتعمل فى حقه عمل الأدلة فاذا عرفت مراتب التصديق فاعلم أن مستند ايمان العوام هذه الاسباب وأعلى الدرجات فى حقه أدلة القرآن وما يجرى مجراه مما يحرك القلب إلى التصديق ولا ينبغى أن يجاوز بالعامي الى ماوراء أدلة القرآن وما فى معناه من الجليات المسكنة للقلوب المستجرة لها الى الطمأنينة والتصديق وماوراء ذلك ليس على قدر طاقته وأكثر الناس آمنوا فى الصبا وكان سبب تصديقهم مجرد التقليد للآباء والمعلمين لحسن ظنهم بهم وكثرة ثنائهم على أنفسهم وثناء غيرهم عليهم وتشديدهم النكير بين أيديهم على مخالفيهم وحكايات أنواع النكال النازل بمن لا يعتقد اعتقادهم وقولهم ان فلانا اليهودى فى قبره مسخ كلبا وفلان الرافضى انقلب خنزيرا وحكايات منامات وأحوال هذا الجنس تنغرس فى نفوس الصبيان النفرة عنه والميل الى ضده حتى ينزع الشك بالكلية عن قلبه فالتعلم

فى الصغر كالنقش فى الحجر ثم يقع نشؤه عليه ولا يزال يؤكد ذلك فى نفسه فاذا بلغ استمر على اعتقاده الجازم وتصديقه المحكم الذى لايخالجه فيه ريب ولذلك ترى أولاد النصارى والروافض والمجوس والمسلمين كلهم لايبلغون الا على عقائد آبائهم واعتقاداتهم فى الباطل والحق جازمة لو قطعوا إربا إربا لما رجعوا عنها وهم قط لم يسمعوا عليه دليلا لاحقيقيا ولا رسميا وكذا ترى العبيد والاماء يسبون من المشرك ولا يعرفون الاسلام فاذا وقعوا فى أسر المسلمين وصحبوهم مدة ورأوا ميلهم الى الاسلام مالوا معهم واعتقدوا اعتقادهم وتخلقوا بأخلاقهم كل ذلك لمجرد التقليد والتشبيه بالتابعين والطباع مجبولة على التشبيه لاسيما طباع الصبيان وأهل الشباب فبهذا يعرف أن التصديق الجازم غير موقوف على البحث وتحرير الأدلة

(فصل) : لعلك تقول لاأنكر حصول التصديق الجازم فى قلوب العوام بهذه الاسباب ولكن ليس ذلك من المعرفة فى شيء وقد كلف الناس المعرفة الحقيقية دون اعتقاد هو من جنس الجهل الذي لايتميز فيه الباطل عن الحق فالجواب أن هذا غلط ممن ذهب اليه بل سعادة الخلق فى أن يعتقدوا الشيء على ماهو عليه اعتقادا جازما لتنتقش قلوبهم بالصورة الموافقة لحقيقة الحق حتى اذا ماتوا وانكشف لهم الغطاء فشاهدوا الأمور على مااعتقدوها لم يفتضحوا ولم يحترقوا بنار الخزى والخجلة ولابنار جهنم ثانيا وصورة الحق اذا انتقش بهاقلبه فلا نظر الى السبب المفيد له أهو دليل حقيقى أورسمى أواقناعي أوقبول بحسن الاعتقاد فى قائله أوقبول لمجرد التقليد من غير سبب فليس المطلوب الدليل المفيد بل الفائدة وهى حقيقة الحق على ماهى عليه فمن اعتقد حقيقة الحق فى الله وفى صفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر على ماهو عليه فهو سعيد وان لم يكن ذلك بدليل محرر كلامى ولم يكلف الله عباده الا ذلك وذلك معلوم على القطع بجملة أخبار متواترة من رسول الله ﷺ فى موارد الأعراب عليه وعرضه الايمان عليهم وقبولهم ذلك وانصرافهم الى رعاية الابل والمواشى من غير تكليفه اياهم التفكر فى المعجزة ووجه دلالته والتفكر فى حدوث العالم واثبات الصانع وفى أدلة الوحدانية وسائر الصفات بل الاكثر من أجلاف العرب لو كلفوا ذلك لم يفهموه ولم يدركوه بعد طول المدة بل كان الواحد منهم

يحلفه ويقول والله أنه أرسلك رسولا فيقول والله الله أرسلنى رسولا وكان يصدقه بيمينه وينصرف ويقول الآخر اذا قدم عليه ونظر اليه والله ماهذا وجه كذاب وامثال ذلك مما لايحصى بل كان يسلم فى غزوة واحدة فى عصره وعصر أصحابه آلاف لايفهم الأكثرون منهم أدلة الكلام ومن كان يفهمه يحتاج الى أن يترك صناعته ويختلف الى معلم مدة مديدة ولم ينقل قط شيء من ذلك فعلم علما ضروريا أن الله تعالى لم يكلف الخلق الا الايمان والتصديق الجازم بما قاله كيفما حصل التصديق

(نعم) : لاينكر أن العارف درجة على المقلد ولكن المقلد فى الحق مؤمن كما أن العارف مؤمن فان قلت فبم يميز المقلد بين نفسه وبين اليهود المقلد؟ قلنا المقلد لايعرف التقليد ولايعرف أنه مقلد بل يعتقد فى نفسه أنه محق عارف ولايشك فى معتقده ولايحتاج مع نفسه الى التميز لقطعه بأن خصمه مبطل وهو محق أو لعله أيضا يستظهر بقرائن وأدلة ظاهرة وان كانت غير قوية يرى نفسه مخصوصا بها ومميزا بسببها عن خصومه فان كان اليهودى يعتقد فى نفسه مثل ذلك فلايشوش ذلك على المحق اعتقاده كما أن العارف الناظر يزعم أنه يميز نفسه عن اليهودى بالدليل واليهودى المتكلم الناظر أيضا يزعم أنه مميز عنه بالدليل ودعواه ذلك لايشكك الناظر العارف وكذلك المقلد القاطع ويكفيه فى الايمان أن لا يشككه فى اعتقاده معارضة المبطل كلامه بكلامه فهل رأيت عاميا قط قد اغتم وحزن من حيث يعسر عليه الفرق بين تقليده وتقليد اليهودى بل لايخطر ذلك ببال العوام وان خطر ببالهم وشوفهوا به ضحكوا من قائله وقالوا اما هذا الهذيان ؟ وكان بين الحق والباطل مساواة حتى يحتاج الى فرق فارق تبينا أنه على الباطل وانى على الحق وأنا متيقن لذلك غير شاك فيه فكيف أطلب الفرق حيث يكون الفرق معلوما قطعا من غير طلب ؟ فهذه حالة المقلدين الموقنين وهذا الإشكال لايقع لليهودى المبطل لقطعه مذهبه مع نفسه فكيف يقع للمسلم المقلد الذى وافق اعتقاده ما هو الحق عند الله تعالى فظهر بهذا على القطع أن اعتقاداتهم جازمة وأن الشرع لم يكلفهم الا ذلك (فان قيل) فان فرضنا عاميا مجادلا لجوجا ليس يقلد وليس يقنعه أدلة القرآن ولا الأقاويل الجلية المفرقة السابقة الى الافهام فماذا تصنع به؟

(قلنا) : هذا مريض مال طبعه عن صحة الفطرة وسلامة الخلقة الاصلية فينظر

فى شمائله فان وجدنا اللجاج والجدل غالبا على طبعه لم نجادله وطهرنا وجه الأرض عنه ان كان يجاحدنا فى أصل من أصول الايمان وان توسمنا فيه بالفراسة مخائل الرشد والقبول ان جاوزنا به من الكلام الظاهر الى توفيق فى الأدلة عالجناه بما قدرنا عليه من ذلك وداوينا بالجدال المر والبرهان الحلو وبالجملة فنجتهد أن نجادله بالأحسن كما أمر الله تعالى ورخصتنا فى القدر من المداواة لاتدل على فتح باب الكلام مع الكافة فان الأدوية تستعمل فى حق المرضى وهم الاقلون وما يعالج به المريض بحكم الضرورة يجب أن يوفى عنه الصحيح والفطرة الصحيحة الأصلية معدة لقبول الايمان دون المجادلة وتحرير حقائق الادلة وليس الضرر فى استعمال الدواء مع الاصحاء بأقل من الضرر فى اهمال المداواة مع المرضى فليوضع كل شىء بوضعه كما أمر الله تعالى به نبيه حيث قال (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن) والمدعى بالحكمة الى الحق قوم وبالموعظة الحسنة قوم آخرون وبالمجادلة الحسنة قوم آخرون على ما فصلنا أقسامهم فى كتاب القسطاس المستقيم فلا نطول باعادته

(تم والحمد لله أولا وآخراً)

فهرست

الجام العوام عن علم الكلام للامام العالم العامل والهمام
الفاضل الكامل حجة الاسلام محمد بن محمد الغزالى
قدس الله سره العالى ومتعنا بعلمه السامي

صحيفة

(تم الفهرست)


Bibliotheca Alexandrina
04557809